التحرير والتنوير لمطاعن المستشرقين في تفسير القرآن الكريم

إعداد:

د/بدرية بنت عطية بن حمزة الحرازي الشريف

عضو هيئة التدريس في جامعة أم القرى

من ٤٠١ إلى ٤٦٨

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين ، الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

قال تعالى : { هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ } [الصف : ٩] .

إن تاريخ القرآن مع مختلف أجيال المستشرقين موغل في القدم فمنذ ظهور حركة الاستشراق قبل قرون ، كان القرآن الكريم أول هدف اتجهت إليه جهود هذه الحركة ، فتوالت ترجماته إلى شتى اللغات الأوروبية ، وبعد نقله إلى هذه اللغات ظهرت الحاجة إلى استيعابه بالقدر الذي ييسر للغربيين فهم الدين الذي تعتنقه الأمة التي فشلت الحروب الصليبية في احتوائها وتنصيرها .

وقد كتب الكثير عن الاستشراق والمستشرقين فكتبوا من تاريخ الاستشراق ، وأغراضه ، ووسائله ، ورجاله ، والآثار التي خلفها حتى أصبحت هذه الكتابات تستعصي على الحصر.

وفي هذه الدراسة ، لن أتعرض لموقف المستشرقين من القرآن الكريم بحد ذاته ، أو بعلوم القرآن كما هو متعارف عليها – اصطلاحاً – .

بل ستكون هذه الدراسة لتتبع كتابات المستشرقين عن موضوع " تفسير القرآن الكريم " ، وذلك في محاولة لجمع آرائهم المختلفة وتقييمها في ميزان العلم ، مع إبراز مواقفهم من التراث التفسيري المتراكم ثم تصورهم لما يجب أن يكون عليه منهج التفسير حسب معتقداتهم الخاصة .

وتظهر أهمية الموضوع في النقاط التالية :

١. باستقراء ما نشر من نقد وتحليل لمواقف المستشرقين وآرائهم فيما يتعلق بالدراسات القرآنية نجد أن الجهود قد تضافرت للرد والتعقيب على مختلف المطاعن المتكررة والتقليدية التي يرددها المستشرقون عن " جمع القرآن " وعن "القراءات القرآنية " ومن النادر أن تلتفت هذه الجهود إلى موضوع التفسير بحد ذاته .

٢. وتظهر أهمية الموضوع في كون هذه الكتابات الاستشراقية لم تهتم بعلم التفسير إلا في العقود الأخيرة فلم يسبق لهذه الكتابات أن تعرضت لمناهج تفسير القرآن ولا لنقد التراث التفسيري أو تقويمه إلا ابتداء من منتصف القرن العشرين ، فتبعاً لذلك فالموضوع جد حديث .

ولنظر لقلة المراجع وندرة الطارقين لهذا الموضوع ، فقد واجهتني صعاب في الحصول على مراجع للموضوع ومصادر ولكن قد كلل الله هذه الصعوبة بالتوفيق من لدنه .

وبعد الإحاطة بما ورد في هذه الكتب وغيرها ، كانت خطتي في البحث تحتوي على مقدمة وفصلين وخاتمة .

أما المقدمة فشملت أهمية الموضوع وأسباب اختياري له وخطة البحث ومنهجه .

الفصل الأول : المستشرقون والتفسير . وتحته مبحثان :

المبحث الأول : الاستشراق والمستشرقون . ويشتمل على تمهيد وأربعة مطالب :

المطلب الأول : تعريف الاستشراق .

المطلب الثاني : نشأة الاستشراق .

المطلب الثالث : دوافع وأهداف المستشرقين .

المطلب الرابع : وسائل المستشرقين .

المبحث الثاني : التفسير في كتابات المستشرقين . ويشتمل على تمهيد وستة مطالب :

المطلب الأول : القرآن في تصورات المستشرقين .

المطلب الثاني : بداية اهتمام المستشرقين بالتفسير .

المطلب الثالث : أسباب اهتمام المستشرقين بالتفسير ودواعيه .

المطلب الرابع : مصادر المستشرقين في الكتابة عن التفسير .

المطلب الخامس : مميزات كتابات المستشرقين عن التفسير .

المطلب السادس : أسباب انحراف كتابات المستشرقين في التفسير .

الفصل الثاني : طعون المستشرقين في التفسير . ويشتمل على تمهيد وأربعة مباحث :

المبحث الأول : موقف المستشرقين من التفسير بالمأثور . وتحته ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : التفسير بالمأثور .

المطلب الثاني : هدم التفسير بالمأثور ونقد المستشرقين لأمهات التفسير عند أهل السنة .

المطلب الثالث : عن شبهات المستشرقين في التفسير المأثور .

المبحث الثاني :موقف المستشرقين من التفسير بالرأي المذموم (التفسير المنحرف) وتحته مطلبان:

المطلب الأول : التفسير بالرأي المذموم (التفسير المنحرف) .

المطلب الثاني : موقف المستشرقين من التراث التفسيري المنحرف

أولاً : إعلاء شأن تفاسير المعتزلة .

ثانياً : إعلاء شأن تفسير المتصوفة .

ثالثاً : إعلاء شأن تفاسير الفرق الدينية " الخوارج والشيعة " .

المبحث الثالث : موقف المستشرقين من التفاسير المعاصرة . وتحته ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : التفسير في ضوء التمدن الإسلامي .

المطلب الثاني : المدرسة العصرية الهندية .

المطلب الثالث : المدرسة العصرية المصرية .

المبحث الرابع : المنهج المقترح للتفسير عند المستشرقين . وتحته ثلاثة مطالب :

المطلب الأول الدعوة إلى توثيق النص القرآن .

المطلب الثاني : المطالبة بنقد التفاسير القديمة .

المطلب الثالث : الدعوة لإعادة تفسير القرآن الكريم .

ثم الخاتمة وذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث .

ثم ذيلت البحث بفهارس علمية مفصلة .

وكان منهج البحث على النحو التالي :

١. جمعت المادة العلمية المتعلقة بالموضوع وتتبعت آراء المستشرقين فيما يتعلق بالتفسير .

٢. قدمت مبحث تمهيدي عن الاستشراق والمستشرقين وأهدافهم ووسائلهم ومن ثم حاولت التقعيد والتأصيل لكتاباتهم في التفسير .

٣. وقد قدمت قبل كل لون من ألوان التفسير بتمهيد في التعريف بهذا اللون ومن ثم إبراز مواقفهم من كل لون وحاولت ضرب بعض الأمثلة والشبهة على كل لون . ومن ثم خلصت إلى تصورهم لما يجب أن يكون عليه منهج التفسير حسب معتقداتهم الخاصة.

٤. وفي ضمن ذلك كله حاولت إظهار الموضوع والكتابة فيه حسب المنهج الأكاديمي المتبع بأن :

(أ) عزوت الآيات القرآنية إلى سورها .

(ب) خرجت الأحاديث والآثار في ثنايا البحث إذا وردت حسب المنهج العلمي المتبع.

(جـ) ترجمت للأعلام حسب الإمكان ودون الإطالة في البحث .

(د) وثقت النصوص الواردة مع التعليق والتوضيح .

(هـ) قمت بترقيم تسلسلي للبحث من أوله إلى آخره .

. والله تعالى أسأل حسن القصد والتمام والبعد عن اللغو والآثام . وأن يوفقنا لحفظ شريعته وخدمة دينه ...

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفصل الأول المستشرقون والتفسير .

المبحث الأول الاستشراق والمستشرقون .

تمهيد :

كان الإسلام على مر الحقب والأزمان الماضية مشعل الهداية للمسلمين ، وأساساً لتقدمهم العلمي والحضاري ، فأقاموا به دولة وأشادوا على أسسه حضارة أثرت على غيرهم من المجتمعات الإنسانية .

ولهذا دخلت كثير من الشعوب فيه ، وبسطت الدولة الإسلامية نفوذها على كثير من الأقطار ، مما جعل الغرب يفكر جدياً في مواجهة هذا الدين بكافة الوسائل ، فشنوا عليه الحروب الصليبية ولما فشلوا في الوصول إلى غاياتهم انصرفوا إلى وسيلة أخرى وهي التشكيك في الإسلام العظيم ، ليحولوا بين الإسلام وبين شعوبهم ، وبينه وبين اعتزاز أهله به وتمسكهم به .

وكان من أضخم المؤسسات التي تبنت حرب الإسلام : التبشير والاستشراق المؤسستان المكملتان لبعضهما في الأهداف والغايات والقريبتان في الوسائل .

والاستشراق مؤسسة علمية في جوهرها ، وفي حقيقة أمرها وجُدِت لحرب الإسلام والكيد له .

وكيف لا ، وهو وقد ولد في أحضان التبشير وشب ورضع وترعرع من الاستعمار ، وأخيراً لبس مسوح رهبان العلم .

ولقد كان للاستشراق أعظم الأثر على العالمين العربي والإسلامي من جهة والغربي من جهة أخرى.

ففي المجتمعات العربية والإسلامية سبب الاستشراق ردة فكرية عن الإسلام ونجح المستشرقون في إيجاد طبقة من المسلمين مخدوعة بأفكارهم وآرائهم ، وذلك باستقطاب الآلاف من شباب المسلمين للجامعات الغربية طمعاً في الألقاب العلمية فرجع هؤلاء الطلاب متأثرين بثقافة الغرب ومناهجه وأساليب تفكيره .

كما كتب الغرب الآلاف من الكتب وعشرات الآلاف من الأبحاث والمقالات والتي ما زال الكثير من الأساتذة والمفكرين في العالم الإسلامي والعربي يعتمدون عليها ، ذاكرين ذلك صراحة في بعض الأحيان ، وكاتمين لها في معظم أوقاتهم هذا بمجموعة أدى لإيجاد ردة فكرية في عالمنا الإسلامي ، وحال دون تطبيق شريعة الإسلام ، وأحكامها في المجتمعات الإسلامية .

وأما تأثيره على العالم الغربي فهو الحيلولة بين الغربيين وبين الإسلام العظيم ، وذلك بتشويه صورة الإسلام في نظر الغربيين الذين لا يعرفونه إلا عن طريق مؤلفات المستشرقين وكلامهم عنه .

المطلب الأول : تعريف الاستشراق

كلمة الاستشراق لفظة مولدة من لفظ (استشرق) المأخوذة من مادة "شرق " أي مستشرق استعمالها المحدثون ترجمة لكلمة (**Orietalism**) التي تدل على (مستشرقون) أما المحققون فيستعملون بدلاً منها (علماء المشرقيات) ولكن (مستشرقون) أكثر شيوعاً خاصة في الآونة الأخيرة .

فالمستشرق هو : عالم غربي اهتم بدراسة الشرقية عقدية كانت أو تاريخية أو أدبية أو حضارية فالاستشراق إذن هو مدرسة الغربيين عن الشرق من ناحية عقائده

أو تاريخه أو آدابه ... إلى غير ذلك وكان أول ظهور لكلمة (مستشرق) في اللغة الإنجليزية سنة ١٧٧٩م كما دخلت في معجم الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٢٨م [1].

المطلب الثاني : نشأة الاستشراق

اختلف المفكرون كثيراً في بداية حركة الاستشراق على أقوال عدة وإن كان قول من أرجعه للقرن السادس عشر الميلادي أكثر وضوحاً ولا يمنع أن يكون هناك محاولات غير منظمة ظهرت قبل هذا التاريخ من القرن العاشر الميلادي منذ أن عمّ الإسلام بلاد الأندلس وانهزمت أمامه جيوش الغرب العسكرية وبان عوار تأخره ثقافياً وحضارياً ، فما كان منه إلا أن وجه كل اهتمامه للتعرف على هذه القوة التي قهرته وتغلغلت في أرضه حتى دكت أبواب دوله وعواصمه ، فأرسل طلابه ينهلون من العلوم الإسلامية في معاقل العلم في ديار الإسلام ، فترجموا كثيراً من كتبه وعلى رأس ذلك القرآن الكريم للتعرف على هذا الدين العظيم كما طلبوا مدرسين يعلمونهم في مراكز العلم عندهم إلى غير ذلك من الأمور التي تدل على اهتمامهم بالمشرق الإسلامي منذ وقت مبكر .

وقد كان هناك عدد من الرهبان الذين اهتموا بالدراسات الاستشراقية مثل الراهب " جورت " و الراهب " بطرس " و " فردريك الثاني " ملك صقلية ، والفونس ملك قشتله وغيرهم .

وعندما عاد هؤلاء من الأندلس إلى بلادهم نشروا ثقافة المسلمين وعلومهم ومؤلفاتهم ، وأخذوا يدرسون في معاهدهم واستمروا بالاعتماد على هذه الكتب قرابة ستة قرون .

---

(١) آراء المستشرقين عمر رضوان ، ص٢٣ ، الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة ، ناصر القفاري وناصر العقل ، ص١٧٤ .

فجاءت بعثات الدراسة متعددة وكان من بينهم دعاة متحمسين طالبوا بضرورة تعلم لغات المشرق لغرض التنصير كأمثال " روجر بيكون " (١٢١٤-١٢٩٤م) و " رايموند لول" (١٢٣٥-١٣١٦م) الذين كان لهما الأثر الكبير في إنشاء كراسي تدريس اللغة العربية في الجامعات الغربية ، فأنشأت خمسة كراسي جامعية في خمس جامعات غربية منها : باريس ، اكسفورد ، ويولونيا ، سلمنكا .

ولما جاء القرن الثامن عشر العصر الذي بدأ فيه الغرب في استعمار العالم الإسلامي والاستيلاء على ممتلكاته نبغ عدد من علماء الغرب في الاستشراق نبوغاً ملحوظاً.

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر عقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس عام (١٨٧٣م) وتتالى عقد المؤتمرات التي تلقي فيها الدراسات عن الشرق وأديانه وحضارته حتى يومنا هذا [١].

المطلب الثالث : دوافع المستشرقين وأهدافهم

تتجلى دوافع المستشرقين وأهدافهم من خلال أعمالهم ومن خلال النظرات التاريخية إلى واقع الدول الغربية ، ومن خلال صلة الاستشراق بالتبشير والاستعمار مع العلم ، فالدوافع تلتقي مع الأهداف باعتبارات الدافع يمثل المحرض النفسي لاتخاذ الوسائل التي توصل إلى الأهداف [٢].

أولاً : الدوافع :

كان من أهم الدوافع لدى المستشرقين هو :

١) الدافع الديني :

---

(١) أجنحة المكر الثلاثة ، عبد الرحمن حبنكة ، ص١٢٠ – ١٢١ ، باختصار .

(٢) أجنحة المكر الثلاثة ، ص١٢٥ .

إن السبب الرئيسي المباشر الذي دعا الأوروبيين إلى الاستشراق هو سبب ديني في الدرجة الأولى فقد تركت الحروب الصليبية في نفوس الأوروبيين ما تركت من آثار مرة عميقة . ومن جهة أخرى رغب النصارى في الدعوة إلى دينهم بين المسلين فأقبلوا على الاستشراق ليتسنى لهم تجهيز الدعاة وإرسالهم للعالم الإسلامي .

ولقد تعالت في أوروبا – بعد فشلهم في الحروب الصليبية – صيحات مفكريهم ورهبانهم تدعو إلى نقل المعركة من ساحة الحروب إلى حقل الفكر والمعرفة ومن أمثلة ذلك :

(أ) دعوة القديس بطرس إلى ترجمة القرآن الكريم ، وكشف عن هدفه من ذلك بقوله : إن القرآن منبع الزندقات وسبب الحركات الهدامة التي تهدد كيان المسيحية فإذا أريد القضاء عليه فلا بد من دراسته والدعوة إلى أنه كتاب متعارض ومتضارب ومتناقض وأن فيه ما يرفضه العقل .

(ب) ثم أعاد هذه الدعوة البابا " اينوسنت الثالث " (سنة ١٢١٣م) .

(جـ) وظهرت الدعوة أيضاً على يد الفيلسوف روجر بيكون والذي وجه رسالة إلى البابا سنة (١٢٦٦م) واقترح فيها أمرين :

– إدخال اللغة العربية في مناهج الدراسات الجامعية وذلك لكونها وسيلة للتنصير (المسمى بالتبشير) ونشر المفتريات ضد الإسلام .

– دراسة الطرق التي يمكن النفاذ منها إلى عقيدة المسلمين لهدمها وتقويضها.

وتنفيذاً لهذه الدعوات قرر مجمع (فينا) الديني المنعقد سنة ١٣١٢م إدخال اللغة العربية إلى جامعات أوروبا المشهورة وهكذا لم يكن الدافع وراء انتشار مراكز الدراسات العربية الإسلامية في الغرب علمياً منذ البداية بل كانت الغاية منه والهدف : دينياً تنصيرياً هدامياً .

كما أن هذا الدافع دفع اليهود لاستغلال حركة الاستشراق لتحقيق مآربهم وأهدافهم وإن لم يظهروا بشخصيتهم اليهودية بل تلونوا مع كل الطوائف وعملوا تحت كل اللافتات وكان من أشهرهم اليهودي المجري " جولد تسهير " والألماني " نولد يكة " وغيرهما كثير [١].

٢) الدافع الاستعماري والسياسي :

كان الدافع للاستشراق دينياً -كما سبق – إلا أن الاستشراق ما لبث مع بداية الأطماع في العالم الإسلامي أن وظف نفسه لخدمة الاستعمار وقد جاء في المذكرة التي رفعها جمع من الأحبار سنة ١٦٢٩م إلى المسئولين في جامعة كمبردج والتي طالبوا فيها إنشاء كراسي للدراسات العربية الإسلامية ما يلي :

يضع المركز نصب عينية خدمة مصالح الملك والدولة وذلك بالعمل من أجل ازدهار تجارتنا مع الأقطار الشرقية ، وتوسيع حدود الكنيسة – إذا شاء الله – في الوقت المناسب ونشر هدى الدين المسيحي بين أولئك الذين لا يزالون يتخبطون في ظلمات الجهالة" يقصدون المسلمين – سبحان الله – ، وبعد تحرر البلاد الإسلامية من الاستعمار العسكري رأى ساسة الغرب أن يكون الاستعمار له طابع آخر وهو أن يكون استعماراً فكرياً لذا اقتضى الأمر أن تزود القنصليات والسفارات والمؤسسات الدولية التابعة لهم لمن لديهم الخبرة في الدراسات الاستشراقية ليبثوا ما تريده دولهم من اتجاهات سياسية ، وليقوموا بمهمات سياسية متعددة منها :

١. الاتصال بالسياسيين والتفاوض معهم لمعرفة آرائهم واتجاهاتهم .
٢. الاتصال برجال الفكر والصحافة للتعرف على أفكارهم ودوافع بلادهم .

---

(١) انظر كلاً من : أجنحة المكر للميداني ص١٢٥ ، الاستشراق والخلفية الفكرية محمود زقزوق ص٧٢ ، الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص١٧٨ .

٣. بث الاتجاهات السياسية التي تريدها دولهم فيمن يريدون بثها فيهم وإقناعهم بها .

٤. الاتصال بعملائهم وأجوائهم الذين يخدمون أغراضهم السياسية داخل شعوب الأمة الإسلامية[١].

وهكذا يظهر لنا جلياً الارتباط العضوي الذي كان يجمع بين الاستعمار والاستشراق وكيف استطاع الاستعمار أن يسخر الاستشراق لأغراضه الرخيصة وأن يخرج الاستشراق عن أهدافه العلمية .

٣) الدافع العلمي :

من القرن الخامس الميلادي حتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادي فترة من تاريخ أوروبا يسمونها هم (العصور الوسطى) كانت أوروبا تعيش حياة مظلمة بائسة في ظل كنيسة متسلطة مستبدة .

وكان أبرز حدث في تاريخ هذه الفترة اتصال أوروبا بالحضارة الإسلامية في الأندلس ، فأخذ الفرنجة يرتادون الأندلس ينهلون من مناهل العلم وكانت هذه الصلة أساس النهضة الأوروبية المادية الحديثة .

- ۞ وقد ظلت ترجمات كتب المسلمين ولا سيما كتب العلوم التجريبية مصدراً وحيداً للتدريس في جامعات أوروبا من خمس قرون .
- ۞ وفي القرن السادس عشر أمر ملك فرنسا بجمع المخطوطات الشرقية في القسطنطينية للاستفادة منها .

---

(١) الاستشراق والمستشرقون ، مصطفى السباعي ، ص١٨-١٩ .

۞ وفي عام ١٥٣٩م نشر بوستل كتابه (القواعد العربية) وهو أول كتاب في قواعد العربية الفصحى ينشر في الغرب وقد ورد في مقدمة الكتاب شرح للأسباب التي من أجلها على الأوروبي أن يتعلم العربية وهي :

(أ) كتب الطب العربية هي أفضل المتوفر من الكتب .

(ب) اللغة العربية مفتاح أدب غني .

(جـ) تتيح اللغة العربية لمن يتكلمها أن يتصل بأكبر عدد من الشعوب . .

نعم كانت اللغة آنذاك أوسع لغات العالم انتشاراً ، وهذا الدافع العلمي النزيه كان لدى نفر قليل جداً ممن أقبلوا على الدراسات الاستشراقية وذلك بدافع من حب الإطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها ولهذا جاءت بحوثهم أقرب إلى الحق وإلى المنهج العلمي السليم من أبحاث الغالبية من المستشرقين . بل إن منهم من أدى به بحثه الخالص لوجه الحق إلى اعتناق الإسلام مثلما حصل مع اللورد هيدلي دينية (ناصر الدين) والشاعر الألماني الكبير جوتيه ، والدكتور جرينيه الذي كان عضواً في مجلس النواب الفرنسي ، وقد سئل عن سبب إسلامه فقال (إني تتبعت كل الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبيعية ، والصحية ، والطبيعية ، والتي درستها من صغري وأعلمها جيداً فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة ، فأسلمت لأنني تيقنت أن محمد – عليه الصلاة والسلام – أتى بالحق الصراح من قبل ألف سنة ، من قبل أن يكون معلم أو مدرس من البشر ، ولو أن كل صاحب علم من العلوم أو فن من الفنون قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم جيداً كما قارنت أيضاً لأسلم بلا شك إن كان عاقلاً خالياً من الأغراض) [1] .

ثانياً : الأهداف : –

---

(١) انظر كلاً من : أجنحة المكر للميداني ، ص١٣٠–١٣١ ، الموجز ، ص١٨٠–١٨١.

إن ما دعى هؤلاء الباحثين الغربيين لبذل كل هذا الجهد والعمر والمال في دراسة غريبة عنهم دوافع قوية وأهداف رئيسية كانت وراء كل هذه الجهود .

وبما أن الاستشراق ولد في حضن التنصير وكبر في حضن الاستعمار ونضج في النهاية في حضن المؤسسات التعليمية . فإن الهدف الديني هو أساس انطلاقه الحركة الاستشراقية ولم يستطيع الاستشراق أن يتحرر من إسار الخلفية الدينية حتى نهاية القرن التاسع عشر إلا قليلاً وقد تمثل هذا الهدف بثلاثة اتجاهات :

أ- محاربة الإسلام والبحث عن نقاط ضعف فيه ، وإبرازها وتضخيمها والزعم بأنه دين مأخوذ من النصرانية واليهودية ، والانتقاص من قيمته والحط من قدر نبيه .

ب- حماية النصارى من خطر الإسلام بحجب حقائقه عنهم وتحذريهم من خطره عليهم .

ج- حملات التنصير بين المسلمين لتشكيكهم في دينهم أو هز ثقتهم وخير ما يوضح هذا الهدف هو قرارات مؤتمر فينا الكنيسي عام ١٣١٢م ويعتبر هذا الهدف الديني هو أساس الأهداف وهناك أهداف أخرى مثل :

١. منع انتشار الإسلام في أوروبا وغيرها حفاظاً على سلطان الكنيسة .
٢. جعل الدراسات الاستشراقية مصدراً لتعليم الإسلام للمسلمين أنفسهم ومصدراً للدراسات عن الشرق عامة .
٣. تمزيق الوحدة اللغوية في الأمة الإسلامية حرصاً على تمزيق عقيدة الأمة ووحدتها.
٤. إضعاف الشخصية الإسلامية بالإحتيال والتزوير في تاريخ الإسلام المجيد ، ومحاولة تحطيمها كذلك بالحرب النفسية .
٥. تحويل المسلمين عن دينهم وإشاعة البلبلة الفكرية في صفوفهم وتحطيم الوحدة الفكرية التي تجمعهم لتصير البلاد لقمة سائغة للأعداء ، ويصير المسلمين إتباعاً لهم.
٦. تأييد الغزو الاستعماري لبلاد المسلمين والعمل على تحطيم المقاومة الإسلامية .

٧. التنفير من العودة للخلافة الإسلامية .

٨. تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري [١].

---

(١) انظر آراء المستشرقين ، ص٣٨-٤٧ ، باختصار ، الاستشراق والمستشرقون للسباعي ، ص٢٣ .

المطلب الرابع : وسائل المستشرقين

تعدد وسائل المستشرقين في الوصول لتحقيق أغراضهم ونشر أفكارهم الاستشراقية فمن هذه الوسائل :

١. تأليف الكتب في جميع العلوم العربية والإسلامية والشرقية فظهر عليها طابع العلم المتجرد ولكنها لم تخل من دسهم فيها مقدار من السم .

٢. تحقيق كتب التراث الإسلامي في كل موضوع من مواضيع القرآن والسنة والسيرة والفقه وقد ركزوا خاصة على حياة التراث الإسلامي ، المنحرف كالباطني والمجوسي .

٣. إصدار الموسوعات العلمية ومن أخطرها (دائرة المعارف الإسلامية) ومن المؤسف أنها مرجع لكثير من المثقفين من أبناء المسلمين .

٤. صنع المعاجم مثل المعاجم الدينية ، والمعاجم اللغوية والمعاجم العامة .

٥. ترجمة الكتب الإسلامية للغاتهم وعلى رأسها تراجم محرفة للقرآن الكريم لتزييف مفاهيمه وانتقاصها .

٦. إنشاء المطابع الشرقية : وذلك لتسهل عليهم مهماتهم بإيصال أفكارهم إلى العالم الإسلامي بسهولة ويسر .

٧. إنشاء الجمعيات وإصدار المجلات والصحف : لبث أفكارهم وتحقيق أغراضهم .

٨. إنشاء المؤسسات التعليمية من : مدارس ومعاهد وجامعات وكراسي جامعية والتسلل للمجامع العلمية .

٩. عقد المؤتمرات الاستشراقية وعقد الندوات ولقاءات التحاور والتبادل الرامية والخبرات فيما يحقق أهدافهم .

١٠. إنشاء المكتبات العلمية جمعوا فيها ملايين الكتب والمخطوطات النفيسة التي استولوا عليها خلال فترات احتلالهم للعالم الإسلامي .

١١. إنشاء المتاحف الشرقية : وذلك بالاعتناء بالسياحة كوسيلة لجمع المعلومات والصور الفوتوغرافية القديمة والآثار الشرقية وذلك لمحاولة ربط الإسلام بجذور يونانية أو رومانية فينيقية أو أشورية ، وكذلك لإثبات جذور اليهودية أو النصرانية .

١٢. إمداد الإرساليات التبشيرية إلى العالم الإسلامي بخبراتهم وجهودهم ، وذلك باسم الأعمال الإنسانية بالمستشفيات والجمعيات الخيرية ودور الأيتام ولكنها في الحقيقة لإلقاء الشبه والافتراءات والأباطيل ضد الإسلام كما أن هذه المؤسسات كانت تختار الأذكياء من أبناء المسلمين فيأخذوهم لتدريسهم في البلاد الغربية فيتلقون تعاليمهم وأفكارهم وسمومهم ويرجعون لبلادهم ليعلموا وينتجوا أكثر من هؤلاء مجتمعين[1] .

---

(١) انظر آراء المستشرقين ص٤٩-٦٧ ، باختصار .

المبحث الثاني : التفسير في كتابات المستشرقين

تمهيد :

التفسير يوصل إلى الحقيقة التي في كتاب الله تعالى وتفسير أي نص يأخذ أهميته من النص نفسه ،ولما كان النص القرآني رباني المصدر ، ومشتملاً على أبرز ملامح المعارف الإنسانية ، وأغلب معالم الحضارة البشرية ، لذا كان تفسيره ذا أهمية بالغة ولكنه يحتاج لإخلاص خاص ، وتجرد عن كل ما يحرف التفسير عن خطه الصحيح .

وإنه مما لا خلاف فيه أن كتابة المستشرقين عن القرآن وتفسيره لم تكن في يوم من الأيام بغرض تقريبه ممن لا ينطقون العربية أو بهدف التعريف بدين الإسلام أو بغرض نشر ثقافة صحيحة عن هذا الدين .. وإنما كانت جهود المستشرقين تنفق لغايات أخرى يتستر عليها بمصطلح " البحث العلمي " و" الأكاديمي " وهذه الدراسات جاءت متفاوتة على حسب العنصر النفسي الأغلب في شخصية كل منهم ،فمن اتجه اتجاهاً موضوعياً كان ما قدمه موضوعياً ، من كان ذا هوى أو تعصب كان انعكاس ذلك واضحاً على كتاباته ، وغالب كتاباتهم عن القرآن الكريم وتفسيره تمليها ظروف نفسية واجتماعية أو نزعات عدائية – وقد يكون لها اهتمامات علمية وأكاديمية – ولو تتبعنا ما حرره المستشرقون وما نشروه ما كنا نحتاج إلى كبير عناء وبحث لكي نصل إلى المعتقد الذي يحكم تعاملهم مع الدراسات القرآنية وهو قناعتهم التقليدية ببشرية كتاب الله تعالى .

والمستشرق – وقد أشرب إنكار ربانية القرآن – يسعى بدهاء كي يبرهن من خلال كتاباته على هذا المعتقد ويستوي في ذلك متعصبتهم ممن يكشفون عن أراجيفهم علانية مع أولئك المستشرقين الذين قادهم الدهاء إلى تغليف دعاويهم ببشرية القرآن .بشتى الأساليب الملتوية.

المطلب الأول : القرآن الكريم في تصورات المستشرقين

قد تختلف تصورات المستشرقين في نظرتهم إلى التاريخ الإسلامي وفي تقويمهم لمختلف العلوم الإسلامية وفي دراستهم للحضارة الإسلامية ، لكن معتقدهم بخصوص ربانية مصدر القرآن لا نكاد نجد فيه اختلافاً .

وهم حين يكتبون عن القرآن أو يبحثون في أسلوبه أو يدرسون تاريخه ينظرون إليه باعتباره أثراً أدبياً محضاً وتراثاً خاصاً بشعب أو بأمة وإذا كان المستشرق من المتعصبين لنحلته فلن يكفيه ذلك ، فيتكلف الاستدلال لعله يظفر بحجة يبرهن بها على أن القرآن الكريم أوتي من التراث الأدبي للأمة التي ينتمي إليها .

وتصور جمهور المستشرقين يقوم على أن القرآن (من نسج محمد –عليه الصلاة والسلام – وتأليفه عن طريق الوحي المزعوم الذي هو عبارة عن أحلام ، ورؤى وأوهام ، وأنه في بدايته كان عبارة عن أفكار وأمثلة تصور الحياة الآخرة ..) [1]. وطالما كان هذا هو معتقد هؤلاء فقد ظل ديدنهم البحث في الأخبار والقصص ، وكتب الأساطير ، ومجادلات الأشقياء من المكذبين الذين عاصروا فترة النبوة ، وغير ذلك لعلهم يظفرون بما يوافق أهواءهم ، وتعصبهم ، وإنكارهم نبوة محمد –عليه الصلاة والسلام – ، وربانية القرآن .

فتصور المستشرقين حين يتكلمون عن القرآن أو يكتبون في موضوعه ينبني على معتقدهم ، أن هذا الكتاب " لم يثبت من قبل الله – عز وجل – ولم ينزل بصورة وحي منه تبارك وتعالى – وإنما هو محض ادعاء واختلاق من محمد–عليه الصلاة والسلام – تبلور من اتصالاته بمن حوله من اليهود والنصارى وغيرهم مما

---

(١) المستشرقون ومصادر التشريع ، عجيل النشمي ، ص٣١ – ٤٣ باختصار .

ساعد على ذلك حالته المرضية ، وعزلته الموحشة التي توهم من خلالها الوحي فرأى من واجبه تبليغ هذه الدعوى للناس " [١] .

وبالنظر إلى ما دونه المستشرقون في دائرة المعارف الكونية ، ودائرة المعارف البريطانية ، ودائرة المعارف الإسلامية ، ودائرة معارف الديانات والأخلاق ، وأطلس الديانات ، وغيرها من المؤلفات التي غدت في السنوات الأخيرة مصادر علمية معتمدة عند الغربيين وعند طائفة من الدارسين المسلمين .

نجد أنهم أبرزوا تصوراتهم بخصوص القرآن :

ففي النشرة الحديثة لدائرة المعارف الإسلامية ، الصادرة بالفرنسية عام ١٩٨١م وأعيد طبعها عام ١٩٨٦م نجد المشتشرق " ويلتش " محرر مادة (قرآن) يقول في المبحث الذي عنوانه بـ " محمد و القرآن " " .... اعتباراً لوجهة نظر السنة " الأرثوذكس " [٢] فإن القرآن تلقاه محمد من الله وحياً عن طريق جبريل بدون أن يكون فيه دخل لأحدهما ، لكن تحليل القرآن يبين وضعيته المركبة ، ففي المقاطع الأولى منه ليس هناك ما يدل على مصدره ، وفي مقاطع غيرها لا يوجد ما يدل على ربانية الرسالة وفي أخرى يظهر أن محمد هو الذي يتكلم ، بل تضمن القرآن مقاطع وردت فيها الإشارة إلى إله محمد بضمير الغائب ..إن هناك آيات مدنية كثيرة تشعرنا بأن محمداً يبحث بفعالية من أجل استقاء معلوماته عن اليهود، وفي هذه المقاطع لا

---

(١) المصدر السابق ، ص٤٣-٤٤ باختصار .

(٢) الأرثوذكس مصطلح ارتبط في الآداب اللاتينية بالكنيسة الشرقية ، أما دلالته في اللغات الغربية فتنصرف إلى صفة الجمود و الإنغلاق في أمور الدين ومن خلال سياق الكلام وروده في كلام ويلتش فقد كنى به عن جمهور أهل السنة

يصعب علينا أن نرى محمداً يأخذ قصصاً ، ومعلومات عن مصادر متعددة بخاصة من اليهود والنصارى ،ثم يعيد صياغة ذلك في القرآن " [١]

أما في النشرة الفرنسية " لدائرة المعارف الكونية ، الصادرة عام ١٩٩٠م فإننا نجد المستشرق كلود كايو حين كتب عن تفسير القرآن جاء في آخر كلامه " ... إن اختلاف مرويات القرآن التي تلقاها أصحاب محمد –عليه الصلاة والسلام – بخاصة القراءات الشاذة والمشهورة – يرجع في أصله إلى الحاجة لإدراج حواشي وشروح تتضمن تشريعات قديمة النص لم يتم الانتهاء من جمعه قبل القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي [٢].

---

(١) انظر مطاعن المستشرقين في ربانية القرآن لعبد الرزاق هرماس ، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ، الكويت ، ص٧٤ ، قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية لفضل عباس ، ص٢٠٨ وما بعدها .

(٢) انظر مطاعن المستشرقين ص٧٤ ، قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية ص٢٠٨ .

المطلب الثاني : بداية اهتمام المستشرقين بالتفسير

اتجه المستشرقون إلى تحقيق كتب التفسير في فترة مبكرة من القرن التاسع عشر الميلادي :

- حيث حقق الألماني " فرايتاج " (ت ١٨٦١م) (أسرار التأويل وأنوار التنزيل) ونشر في ليبزيج عام ١٨٤٥م وحقق الإنجليزي وليم ناسوليز ت (١٨٨٩م) تفسير (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) ونشره خلال أربع سنوات ١٨٥٦-١٨٥٩م .
- ثم انصرف المستشرقون بعد ذلك إلى التأليف في التفسير الموضوعي وأكثروا منه فنشر الهولندي " فان جنيب " (إبراهيم في القرآن) ضمن مجلة العالم الإسلامي ١٩١٢م ، ونشر الألماني أدلف جروهمان (عيسى في القرآن) ضمن الجريدة الشرقية ١٩١٤م ، ونشر رافلين

  (القانون في القرآن) عام ١٩٢٧م ، ونشر جوتين (الصلاة في القرآن) عام ١٩٥٥م .
- أما فيما يتعلق بمناهج المفسرين واتجاهات التفسير فقد اتجه إليه المستشرقون منذ مطلع القرن العشرين وتوسعت دائرة اهتمامهم به ابتداء من منتصف هذا القرن ،فنشر الإنجليزي " هورسفيلد " بحوث جديدة في نظم القرآن وتفسيره عام ١٩٠٢م ، ونشر الفرنسي "كليمان هوار " وهب بن منبه والتراث اليهودي النصراني باليمن ، عام ١٩٠٤م ، ونشر اجنتس جولد تسيهر مذاهب التفسير الإسلامي عام ١٩٢١م وريتشارد هارتمان (تفسير القرآن) عام ١٩٢٤م ، وكتب أثر جفري (أبو عبيدة والقرآن) ونشر عام ١٩٣٨م .
- وابتداء من منتصف القرن العشرين بدأت دراسات المستشرقين عن مناهج واتجاهات التفسير تأخذ بعداً آخر ، انطبع بطرق دراسة التوراة والأناجيل في

البيئة الغربية فأصدر جاك جويمير (تفسير القرآن عند مدرسة المنار)عام ١٩٥٤م . ونشر "ج . بالجون "(تفسير القرآن في العصر الحديث) عام ١٩٦١م ، ونشر " نويا " (التفسير القرآني واللغة الصوفية) عام ١٩٧٠م ، ونشر (ترجمة القرآن نزوله وتدوينه وترجمته وتأثيره) " لبلاشير" عام ١٩٧٤م وغير ذلك [1].

المطلب الثالث : أسباب اهتمام المستشرقين بالتفسير ودواعيه

سبقت الإشارة إلى أن اهتمام المستشرقين بمناهج المفسرين واتجاهات التفسير هو وليد القرن العشرين ، ظهر في مستهله ، وتوسع في منتصفه ، وكثرت الكتابة فيه خلال السبعينات ، وتراجع هذا الاهتمام الآن بسبب هلاك مشاهير أساتذة الدراسات الشرقية بالغرب وقلة المهتمين بهذا المجال من الباحثين الأوروبيين الناشئين مما ضاعف أزمة الحركة الاستشراقية التي لا زال أقطابها الأحياء يبحثون عن وسائل إنعاشها .

وعندما نتساءل عن أسباب اهتمام المستشرقين بالتفسير فنجد أنهم يذكرون بعضاً منها :

١. إن اهتمام المستشرقين بالقرآن ترجمة ودراسة كان موجهاً لغاية فهم البيئة الإسلامية ومعرفة العالم الإسلامي [2]، وهذه المعرفة والفهم اللذان سيؤسس عليهما الغرب سبل السيطرة على الشعوب الإسلامية ولكن بعد عقود من الجهود المضنية ظهر لهم خطأ الطريق .
٢. لأنهم يعتقدون أن فهم الدين والكتاب المقدس ليس وقفاً على رحاب الكنيسة وحدهم وهكذا كان التيار البروتستانتي في الكنيسة الغربية قد بنى دعوته للتجديد

---

(١) انظر تفسير القرآن الكريم عند المستشرقين عبد الرزاق هرماس ، ص١١٠ – ص ١١١ باختصار .

(٢) القرآن : نزوله وتدوينه ، بلاشير ، ص٢٠ .

الديني – وإنما تجاورهم لأهل الفكر والمعرفة ممن أوتوا سعة في الأفق ونفاذاً في الإدراك فلماذاً يبقى تفسير القرآن خاصاً بعلماء الإسلام وأئمة الدين من المسلمين [١].

٣. يجب دراسة القرآن دراسة أدبية كما تدرس الأمم المختلفة عيون آداب اللغات المختلفة .

٤. وفاء بحق القرآن ولو لم يقصدوا الاهتداء به أو الانتفاع بما حوى وشمل به ما يجب أن يقوم به الدارسون نحو أي كتاب مقدس حتى ولو لم تنطوي صدورهم على اعتقاد ما فيه ؟

وبمثل هذه الدعاوى تمسك المستشرقون المعاصرون فدعوا إلى تفسير أصول تفسير القرآن وقواعده وآدابه ، وتبنوا موقفاً هدمياً من مختلف مصنفات التفسير ثم وضعوا لأنفسهم منهجاً قريباً أرادوا أن يخضعوا له التفسير آملين أن يعيدوا صياغة دين متجدد وإسلام متطور وتفسير خاضعاً للأهواء .

المطلب الرابع : مصادر المستشرقين في الكتابة عن التفسير

تختلف المصادر التي اعتمدها المستشرقون للكتابة عن التفسير تبعاً لعدة عوامل منها تفرغهم للدراسات القرآنية ، وإلمامهم بمختلف اللغات الأوروبية ، وأخيراً إطلاعهم على الآداب العربية ، فالملاحظ أن أولئك الذين يكتبون في مختلف العلوم الإسلامية يطغى عليهم اختصار مؤلفات سابقيهم .

وأما مسألة الإلمام باللغات الأوروبية فيظهر أثره بالنظر إلى أن إصدارات الحركة الاستشراقية المتصلة بالتفسير موزعة بين تآليف مكتوبة بالألمانية والفرنسية والإنجليزية

---

(١) انظر مادة تفسير (٣٦٦/٥) ضمن دائرة المعارف الإسلامية تعليق أمين الخولي أصدرها بالعربية أحمد الشنشاوي ، إبراهيم خورشيد ، عبد الحميد يونس

وترجمة هذه التآليف من إحدى هذه اللغات إلى أخرى قليل مقارنة بنشاط الترجمة في مختلف المعارف بالغرب .

وأما العامل الأخير وهو الإطلاع على الآداب العربية فالمقصود بذلك الإلمام بها ، إذ الغالبية العظمى من المستشرقين لا يتكلمون العربية أصلاً ، وقلة منهم يفهمون ما يقال بالعربية بصعوبة ، وحتى أكثرية أولئك الذين نشأوا وعاشوا في البلاد العربية لا تخفى الصعوبة التي تعترضهم حين يتعاملون مع الكتاب العربي ،وحين نبحث في المصادر المعتمدة لدراسة التفسير عند المستشرقين نجد بأن أكثرها مراجع وسيطة تتشكل بالأساس من تلك المؤلفات التي نشرها المستشرقون أنفسهم وقد يحيل بعضهم إلى بعض المصادر والمراجع العربية .

وتنقسم مصادر كتابات المستشرقين عن التفسير إلى قسمين :

أولاً : كتابات اعتمد مؤلفها الإحالة على مصادر ومراجع بالعربية لم تترجم إلى اللغات الأوروبية وهي قليلة نسبياً ، مثل مذاهب التفسير الإسلامي ، ومادة قرآن ضمن الموسوعة الإسلامية.

ثانياً : كتابات استشراقية اهتمت بالتفسير وكانت عالة على التراث الإستشراقي نفسه وهذا القسم هو الأكثر وقد تجسد هذا القسم بخاصة في المادتين اللتين حررتا عن [تاريخ التفسير] و [القرآن والدراسات المعاصرة] حيث نجد لائحة مراجع المادة تتضمن عشرين مرجعاً كلها بدون استثناء من كتابات المستشرقين أو تلاميذهم بشتى اللغات الأوروبية .

ومن الأمثلة على ذلك : ما ينقله " جولد تسهير " في كلامه عن القراءات القرآنية ضمن الفصل الذي خصصه (للمرحلة الأولى للتفسير) نجده يحيل في توثيقه القراءات ، إلى الكشاف للزمخشري ومع أنه كتاب في التفسير إلا أنه ليس مصدراً للقراءات فالزمخشري أحياناً يتعصب للقراءة المردودة والشاذة التي تنصر مذهبه

والمستشرق يستغل هذا الجانب . وكذلك وجدنا من ينشر (شواذ القراءات) لابن خالويه (وكتاب المصاحف) لابن أبي داود . وكذلك بعض الروايات الواهية التي ذكرها السيوطي في الإتقان حيث يستندون إليها في مطاعنهم .

ومن خلال الأمثلة نجد أن رجوع المستشرقين للمصادر العربية كان محكوماً بتصوراتهم الخاصة عن القرآن فلم تفدهم هذه المصادر من الناحية المعرفية بشيء وأحياناً نجدهم يتعمدون الكذب وينسبونه لهذه الكتب وقد وجد منهم من لم يعرف العربية ولم يرجع إلى المصادر ولكنه وجد ركاماً بين يديه وكتابات أسلافه فاعتمدها وسعى إلى ترويجها بأخطائه المعرفية والمنهجية المعتمدة[١] .

المطلب الخامس : مميزات كتابات المستشرقين عن التفسير.

عند النظر إلى جميع كتابات المستشرقين عن موضوع التفسير نجدها انطبعت بمجموعة من المميزات ظهرت بجلاء رغم تمسك بعضهم بإضفاء الطابع العلمي المجرد على هذه الكتابات :

١) الميزة الأولى : الانتقائية

والأصل أن الدراسات والبحوث الإنسانية جمعاء تعتمد على التتبع ثم الجمع ثم الاستقراء واستخلاص النتائج ، أما كتابات المستشرقين عن التفسير فهي تنطلق من تصور اقتنع به المستشرق أو أراده ثم يسعى جاهداً من أجل تقريره وتدعيمه حتى يصبح "حقيقة علمية " وفي سعيه لذلك يلجأ لأي معطيات يقع عليها حتى ولو كانت لا أصل لها .

٢) الميزة الثانية : الذاتية

---

(١) انظر التفسير في كتابات المستشرقين ، عبد الرزاق هرماس ، مجلة البحوث الإسلامية العدد ٦٧ باختصار وتصرف يسير .

ومردها إلى تأثير الخلفية الدينية للمستشرق في كتاباته ، فمعتقد المستشرق أن القرآن من تأليف محمد–عليه الصلاة والسلام – ، فيكتبون عنه باعتباره أثراً من الآثار الأدبية العربية .

٣) الميزة الثالثة : السطحية

أي فقدان أي عمق علمي أو معرفي ، وقد برزت هذه السطحية على مستوى مضمون كتابات المستشرقين عن التفسير وعلى مستوى المنهج فعلى مستوى المضمون لا تكاد هذه الكتب تخفي فقرها المعرفي ، وتجاهلها لبديهيات العلم وعدم الرجوع إلى المصادر وإما على مستوى المنهج فقد حرصوا على دراسة التفسير بمناهج غريبة عن هذا العلم استعاروها من خارج التراث العلمي الذي يهتمون به فكان من نتيجة ذلك أنهم لم يستوعبوا علم التفسير ولم يستطيعوا أن يفهموا مناهج وطرق المفسرين .

٤) الميزة الرابعة : الانقطاع

ويظهر ذلك من خلال مختلف المشروعات التي يطرحها المستشرق فرغم اتفاقهم في المرحلة الأخيرة على إعادة تفسير القرآن اعتماداً على مختلف العلوم الإنسانية والتفسير الذي يعتمد على معطيات العلوم الإنسانية واختلاف مجالاتها ، ضرب من الخيال ومحاولة متعمدة لدفع تفسير القرآن إلى فضاء التيه ، وتظهر هذه الميزة من خلال مختلف كتابات المستشرقين فلو جمع مختلف ما نشره هؤلاء عن الموضوع فسنجد أننا أمام سديم الإنشائيات التي لا يجمع بينها شيء خلا تلك الدعوة إلى إعادة النظر في التفسير .

وإذا ألفينا المميزات السابقة نقائص أو سلبيات أثرت على القيمة العلمية لهذه الكتابات ، فكان حرياً بها تبعاً لذلك أن تظل محصورة في دوائر وأكاديميات المستشرقين وأذنابهم من المسلمين [١].

(١) انظر التفسير في كتابات المستشرقين لعبد الرزاق الهرماس ، مجلة البحوث الإسلامية ، العدد ٦٧ ، باختصار وتصرف يسير .

المطلب السادس : أسباب انحراف كتابات المستشرقين

إن انحراف كتابات المستشرقين عن التفسير يرجع إلى عدة أسباب يمكن إجمالها كالتالي :

١. فساد المعتقد ومرده إلى تعصبهم لمللهم ونحلهم لذلك عميت بصائرهم عن إدراك دلائل ربانية القرآن ، ومن ثم نظروا إلى هذا الكتاب باعتباره جزءاً من تراث الأمة التي تدين به لربها .

٢. سوء القصد فالمستشرقون ولجوا ميدان التفسير ولم يبغوا الحق ، بل منهم من قصد إلى إضفاء تصورات نحلته عليه .

٣. فوضى المنهج : ويعرف المنهج بأنه الطريقة التي يسلكها الدارس والباحث من أجل الوصول إلى حقيقة علمية سواء كانت تلك الطريقة تعتمد على الاستقراء والتتابع أو كانت تعتمد على التحليل والتقويم أو التجريب والملاحظة .

وغياب المنهج في أي مجال من مجالات البحث يؤدي إلى ما يمكن أن نصطلح عليه " بفوضى المناهج " ، وظهرت هذه الفوضى لما اعتبروا القرآن تراثاً أدبياً تجرب عليه كل المناهج التي عرفتها البيئة الغربية ، سواء كانت مناهج مادية أو وضعية وسواء تاريخية أو فلسفية ، لينتهي المطاف بالمستشرقين إلى فتح مجال التفسير لشتى المناهج التي عرفت في ميدان العلوم الإنسانية بالغرب بتناقضاتها وتضاربها واخفاقاتها أيضاً .

٤. الجهل بالعلم فالنظر إلى جميع كتابات المستشرقين عن التفسير نجد بأنه اجتمع فيها الجهل بالتفسير والجهل بما يقتضيه هذا العلم ، أما الأول فمظهره تجلى من خلال ترديد الأجيال المتعاقبة من المستشرقين لتراث متقدميهم وأسلافهم فقط ، وأما الجهل بمقتضى العلم فأول مظاهره عدم اكتراثهم بآداب وقواعد علم التفسير حيث تقرر في أوساطهم منذ عقود أن تفسير كتاب الله

يمكن أن يزاوله حتى من يكفر بربانية القرآن أو من يبحث عن دلائل " نسبته إلى البشر .

٥. الجهل باللغة العربية ، وعلومها وآدابها إذ أن مشاهيرهم لا يحسنون الحديث بالعربية ولا يستطيعون الحوار بهذه اللغة ولا استظهار شيء مكتوب بها رغم أنهم متأخري المستشرقين ، فإن القطعية بينه وبين اللسان العربي لا جدال فيه ، وبالتالي لن يصلوا إلى الاستفادة من المصادر العربية فيظل تكرار (الإنشائيات) التي يجدونها مكتوبة بلغة يفهمونها [1].

---

(١) التفسير في كتابات المستشرقين ، لعبد الرزاق هرماسي ، باختصار وتصرف يسير .

الفصل الثاني : طعون المستشرقين في التفسير

تمهيد :

اهتم عدد كبير من المستشرقين بالتفسير ، وتعددت دراساتهم حوله ، ولا يخفى على أحد أن اهتماماتهم بهذا العلم كانت خدمة لأغراضهم الخاصة ، وتحقيقاً لنواياهم المبيتة .

كما أن هذه الدراسات كانت قاصرة ، وغير منهجية ومشوبة بما لا يتفق مع روح الدين الإسلامية ، فكان لهم موقفهم من التراث التفسيري المتراكم .

وقد تحكمت في توجيه كتاباتهم عن مختلف التفاسير عدة عوامل ، فهناك أولاً : تعاطفهم مع مختلف الفرق المنحرفة التي شهدها تاريخ الفكر الإسلامي ، ثم هناك معاداة جهورهم لأهل السنة والجماعة ولأئمة الإسلام الذين ينتسبون إليهم ، ثم هناك تعصبهم الأعمى لنصرانيتهم أو ليهوديتهم ، هذا فضلاً عن عامل آخر لا يقل أهمية هو غلبة الجهل باللسان على الأغلبية الساحقة من دارسي القرآن العربي المبين .

وقد سبقت الإشارة إلى أن اهتمامهم بدراسة مناهج التفسير واتجاهات المفسرين توسعت في النصف الثاني من القرن العشرين ، أما قبل ذلك فمن النادر أن تجد مستشرقاً يلتفت لهذا الموضوع أو يفرده بالكتابة خلا (أجنتس جولد تسيهر) [ت ١٩٢١م] وبعض من اقتبس كلامه من المستشرقين .

وحين نرجع إلى (مذاهب التفسير الإسلامي) " لجولد تسيهر " نجده خصص المبحث الأول عن المرحلة الأولى للتفسير للكلام عن القراءات والطعن فيها ، وجمع طائفة من المغالطات بشأنها ، لينتقل بعد ذلك إلى المبحث الثاني عن " التفسير المأثور " فلم يسأل فيه بشيء على الإطلاق ، لأن غرضه هدم هذا التفسير

لطغيان الروايات الواهية عليه ، ثم انخرط " جولد تسيهر " في تفصيل الكلام عن الاتجاهات المنحرفة في التفسير ويظهر من خلال اهتمامه بها وتوسعه في دراستها أنها كانت مبتغاه الذي لأجله ألف كتابه .

فأفرد فصلاً لما اصطلح عليه " التفسير في ضوء العقيدة " أدرج فيه الكلام عن تفسير المعتزلة ثم تفاسير الباطنية قديماً وحديثاً ، سواء كان هؤلاء الباطنية من غلاة المنسوبين إلى التشيع

(الإسماعيلية) أو من (ملاحدة المتصوفة) ثم خصص فصلاً آخر لما أسماه "التفسير في ضوء الفرق الدينية " تكلم فيه عن التفسير عند الشيعة الإمامية والخوارج وأتى فيه بافتراءات كثيرة وافتراضات ساذجة ، وخلط بين مقالات وآراء الإمامية والإسماعيلية بطريقة ماكرة .

أما الفصل الأخير فقد عنونه بـ " التفسير في ضوء التمدن الإسلامي " وفيه توسع في الكلام عن التفسير عند محمد عبده وتلاميذه الذين سماهم " المعتزلة المحدثين " والذي يقرأ هذا الفصل يرى كيف تتبع تسيهر في صبر وأناة مختلف القضايا التي خالفت فيها مدرسة المنار جمهور أهل السنة في الاعتقاد والفروع كما يستشف القارئ تلك العاطفة التي غلبت على هذا المستشرق وهو يحرر هذا الفصل ، بل إن الملاحظ أن تفسير القرآن الحكيم (المنار) هو أكثر كتب التفسير وروداً في إحالات " جولد تسيهر " هذه الإحالات التي تشتمل أجزاء تفسير المنار من الأول حتى الرابع عشر حسب الطبعة القديمة .

ولما جاء المستشرقون المتأخرون وجدوا " جولد تسيهر " مهد لهم طريق البحث والدراسة ووجدوا في " مذاهب التفسير الإسلامي " دليلاً يتبعونه في مجال كتاباتهم عن التفسير ، لكنهم زهدوا في التراث التفسيري القديم ، الذي اكتفى منه " جولد تسيهر " بأسماء الكتب إذا لم يبحث عن غير ذلك وتوقف هؤلاء المتأخرون عند التفاسير المعاصرة التي لم يعجبهم منها إلا تراث " مدرسة المنار " .

وفي المباحث التالية سوف نتعرض لهذه الطعون التي أثارها " جولد تسيهر " ومن تبعه في التفسير وسنتعرف على آرائهم ومواقفهم من كل لون من ألوان التفسير والمجال لن يتسع لسرد جميع الشبهات أو الآراء وإنما سأوضح قدر الإمكان كل لون ثم أعرض مواقفهم وآراءهم فيه ومن ثم نخلص إلى المنهج المقترح عندهم للتفسير .

والله الموفق والهادي لسواء السبيل .

المبحث الأول : موقف المستشرقين من التفسير بالمأثور

المطلب الأول : التفسير بالمأثور

مر تفسير القرآن الكريم بمراحل وأطوار عديدة حتى اتخذ الصورة الحالية التي نجده عليها الآن في بطون المؤلفات والتصانيف .

نشأ هذا العلم مبكراً منذ عصر الإسلام الأول حيث كان النبي عليه الصلاة والسلام أول شارح للقرآن الكريم بين أصحابه ما يشكل عليهم فهمه : قال تعالى : { وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ }(١) . ونقل إليها هذا التوضيح على شكل روايات من خلال كتب السنة ، وكانت هذه الروايات قليلة نظراً لنزول القرآن الكريم بلغة القوم ومعايشتهم لأسباب النزول ولذا كانت حاجتهم للتفسير محدودة .

ولكن بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ، واتساع رقعة دولة الإسلام ودخول الأعاجم فيه كانت الحاجة ماسة والمطلب ملحاً من الصحابة أن يقوموا بنقل ما تعلموه من الرسول عليه الصلاة والسلام ويوضحوا للناس زيادة على ذلك ما فهموه وعايشوه من روح النص القرآني الكريم وكان من الصحابة رضوان الله عليهم من اشتهر بالتفسير وتتلمذ على يديهم نفر من التابعين الكرام حاملين ما تعلموه لأقطار شتى مكونين في كل بلد نزلوا فيه مدرسة تفسيرية لها روادها وتلاميذها ، وكان أشهر هذه المدارسة التفسيرية :

١. مدرسة مكة المكرمة وأستاذها حبر الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنه .
٢. مدرسة المدينة المنورة وأستاذها أبي بن كعب رضي الله عنه .
٣. مدرسة الكوفة وأستاذها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

---

(١) سورة النحل آية (٤٤) .

وقد كان لهذه المدارس الفضل الكبير في نقل هذا العلم لتابعي التابعين ، محتفظاً بطابع التلقي والرواية .

ولكن التابعين بعد دخول كثير من أهل الكتاب في الإسلام نقلوا عنهم في التفسير كثير من الإسرائيليات ، كما يظهر في عهدهم بوادر الخلاف المذهبي نتيجة للنزوع للعقل في فهم الآيات القرآنية الكريمة ونتيجة للتصرف في فهم اللغة العربية.

ومنه الروايات الخاصة بالتفسير حيث دونت كباب من أبواب الحديث سواء كانت مروية عن النبي عليه الصلاة والسلام أو الصحابة أو التابعين ، ملتزمين بذكر إسنادها .

ثم بدأ تدوين التفسير في كتب مستقلة ، ومن أبرز ما حفظ لنا جامع البيان لابن جرير الطبري الذي يوشك المفسرون من بعده أن يكونوا عالة عليه .

ثم خطا التفسير بعد عصر الطبري خطوة أخرى اقتصر فيها المفسرون على أسانيد روايات التفسير ، مضيفين لها أقوال من تقدمهم من المفسرين وعلى رأسهم أبو الليث السمرقندي في (بحر العلوم) كما ظهر في هذه المرحلة تفاسير لغوية تقوم على فهم النص القرآن حسب دلالة اللغة وروحها ، اشهرها : الكسائي والفراء والزجاج وغيرهم وبعد ذلك اتجه العلماء في تفاسيرهم اتجاهات متباينة فكان كل ما يسمي بالتفسير بالمأثور وهو امتداد للتفاسير السابقة المسندة إلى الصحابة والتابعين وتابعيهم وأما ما يسمى (التفسير بالرأي) بقسميه المحمود منه والمذموم ، فالمحمود منه : التزم أموراً منها النقل عن رسول الله عليه الصلاة والسلام و صحابته الكرام بما صح عنهم ، ثم الأخذ بمطلق اللغة ومقتضيات الكلام .

أما المذموم منه : فهو الذي ألفه أصحابه لتأييد مذاهبهم والانتصار به لأذواقهم مواجيدهم ، وقد ظهر في هذا اللون جهل كثير بالعربية وقواعدها ، وصرف لمقتضيات الكلام عما وضع عليه وخروج عن قواعد الشرع الإسلامي .

المطلب الثاني : هدم التفسير بالمأثور ونقدهم لأمهات التفسير عند أهل السنة

لم تدخر الحركة الاستشراقية جهداً للطعن في التفسير بالمأثور ، وطريقة هذا الطعن هو هدم التفسير بالمأثور ، وأما وسيلة الهدم للتفسير بالمأثور فكانت هي :

الطعن في صحته ، عن طريق الطعن في مشاهير رواة التفسير ، وفي مصنفات أعلام المفسرين. ومن الذين جندوا أنفسهم لهذا العمل المستشرق الفرنسي "كليمان هوار " الذي نشر عام ١٩٠٤م دراسة بعنوان " وهب بن منبه والتراث اليهودي والنصراني باليمن " اهتم فيها بالبحث عن الأصول اليهودية ، المسيحية للقرآن الكريم والتفسير وخلص في ختام ما نشره إلى أن جامع البيان لابن جرير الطبري لا يعدو كونه نسخة عربية لما تضمنه الكتاب المقدس [١].

ولكن الذي يمكن أن نخرج به من حملة المستشرقين على جامع البيان :

١. أنهم رأوا في الحملة على التفسير بالمأثور جزءاً من الواجب الذي ترتب عليهم بسبب موقفهم من تراث المبتدعة فلكي يخلوا المجال لهذا التراث لابد من إبعاد مقابله وهو تفسير أئمة أهل السنة ومنه جامع البيان .
٢. أن جهلهم باللسان العربي جعل المعاصرين منهم لا يتوقفون عن ترديد كلام أسلافهم لعجزهم عن التعامل مع بقية التفاسير الأثرية الأخرى .

ومن أبرز من كتب في تاريخ التفسير الإسلامي ومذاهبه من المستشرقين المستشرق المجري "جولد تسيهر " في كتابه (مذاهب التفسير الإسلامي) فكان كتابه شاملاً لأفكار الكثير من أمثاله ومرجعاً لمن جاء بعده ولا شك أن " جولد تسيهر

---

(١) انظر مطاعن المستشرقين في ربانية القرآن ، لعبد الرزاق هرماس ، ص٧٤ ، قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية لفضل عباس ، ص٢٤٠ ، مجلة البحوث ، ص١٣١ .

" بذل جهداً كبيراً في الإطلاع على كتب التفسير المختلفة ، فجاء خليطاً بين آراء علمية صائبة تارة ، وآراء الدافع للقول فيها هوى دفين وحقد أسود .

وقد كان يتعرض " جولد تسيهر " للتفسير بالمأثور بدراسة مطولة وكعادته يرفع الشيء حتى يجعله كالأصل الذي لا يستغني عنه ثم يبدأ بعد ذلك بكيد التهم له والتشكيك فيه [١].

المطلب الثالث : من شبهات المستشرقين في التفسير بالمأثور

الشبهة الأولى :

تَمنُع بعض الصحابة والتابعين عن تفسير القرآن الكريم .

زعم " جولد تسيهر " أن بعض الصحابة والتابعين امتنع عن تفسير القرآن الكريم وذكر منهم عمر بن الخطاب وأبا بكر – رضي الله عنهما – وأبا وائل شفيق بن سلمة ، وعبيدة بن قيس الكوفي ، وسعيد بن جبير ، واللغوي الكبير الأصمعي وغيرهم [1].

الرد على الشبهة :

إن شرف علم التفسير لا يخفى على كل ذي بصيرة قال تعالى : { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ× وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا، } [2].

وقد فسر العلماء الحكمة في الآية بتفسير القرآن الكريم والتفقه فيه [3]، ورد هذا العلم الشريف وإنكاره ومنع الخوض والتبحر فيه يؤدي في النهاية لضياع المهمة التي من أجلها نزل القرآن الكريم ، وهو الوقوف على معانيه من أجل العمل به كما يسبب هذا المعترك لهذا العلم ضياع كثير من الحقائق الشرعية وكثير من المبادئ العامة والمسائل الخاصة .

فالمعروف أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يعطون القرآن الكريم وفهمه والعمل به كل جهدهم .

---

(١) انظر مذاهب التفسير الإسلامي ، ص٧٣ –٧٤ .

(٢) سورة البقرة ، آية ٢٦٩ .

(٣) انظر المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ١٤) .

أما من امتنع من الصحابة والتابعين من تفسير القرآن الكريم أو بعض آياته إنما هو تورعا واحتياطاً لأنفسهم لعدم بلوغهم شيء من ذلك عن رسول الله عليه الصلاة والسلام – أو تمنعهم خوفاً أن يقولوا شيئاً في كتاب الله سبحانه لا يبلغ القول الصائب والقائل فيه بغير علم قائل على الله ما لا علم له به فيكون مخطئاً في فعله وإن أصاب فيه برأيه [1].

ومما يدل أن هذا العلم لا يجوز فيه إلا القول بعلم ، ما رواه ابن أبي مليكة أن ابن عباس رضي الله عنهما – سئل عن آية لو سئل عنها بعضهم لقال فيها ، فأبى أن يقول فيها فكهذا كانوا رضوان الله عليهم ، لا يتكلمون إلا فيما يعلمون من القرآن [2].

والجدير بالذكر أن هؤلاء المنسوب إليهم التمنع عن القول في التفسير في بعض الآيات قد ثبت عنهم القول في آيات أخرى مما بلغهم فيها من علم .

فهذا يبطل دعوى " جولد تسيهر " وغيره ممن يحاولون التشكيك في التفسير بالمأثور بمثل هذا الموقف من بعض الصحابة والتابعين وبعض العلماء المخلصين .

الشبهة الثانية :

أن روايات التفسير لا أصل لها .

استند " جولد تسيهر " في هذه الشبهة قول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله [ثلاثة أشياء لا أصل لها : التفسير والملاحم والمغازي] . وهذا يعني أن جميع هذه الروايات في التفسير لا أصل لها فبهذا رد " جولد تسيهر " التفسير بالمأثور [3].

---

(١) جامع البيان (٨٩/١) .

(٢) جامع البيان (٧٩/١-٨٦) .

(٣) انظر التفسير الإسلامي ، ص٧٤-٧٥ .

الرد على الشبهة :

إن ما فهمه " جولد تسيهر " من هذا القول ، ورد به التفسير بالمأثور فهم خاطئ وليس بصحيح وقد وضح العلماء قول الإمام أحمد هذا على أقوال :

١. قال بعضهم : لا أصل لها : أي لا إسناد ، لأن الغالب عليها مراسيل مثل ما يذكره عروة بن الزبير ، والشعبي ، والزهري ، وابن إسحاق ، وموسى بن عقبة ، وغيرهم [١]. وقال الزركشي في البرهان (قال الميموني : سمعت أحمد بن حنبل يقول : ثلاثة كتب ليس لها أصول : (المغازي ، والملاحم ، والتفسير) . قال المحققون من أصحابه ، ومراده أن الغالب أنها ليست لها أسانيد صحاح متصلة وإلا فقد صح من ذلك كثير [٢].

٢. قال السيوطي في الإتقان (وأما القسم الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود في كثير والحمد لله ، وإن قال الإمام أحمد : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازي ، وذلك لأن الغالب عليها المراسيل) [٣] .

٣. وفسر بعضهم عبارة الإمام أحمد بأن المقصود ثلاثة كتب ودليلهم أن رواية الإمام أحمد رويت ثلاثة كتب كما نقلها الزركشي في الرواية السابقة الذكر .

٤. وفسر بعضهم أن المقصود بالرواية أن تفسيرها مبني على مصطلح الحديث وذلك أنه لا يلزم من نفي الصحة ثبوت الوضع .

وقد روى عن الإمام أحمد – رحمه الله – (أربعة أحاديث ليس لها أصل ومنها : للسائل حق وإن جاء على ظهر فرس) [٤].

---

(١) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ، ص٥٩ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ، للزركشي (١٥٦/٢) .

(٣) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي (١٧٨/٢) طبعة البابي الحلبي مصر .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد (٢٠١/١) .

فمن هنا يظهر أن هذه الحجج التي استدل بها منكرو التفسير بالمأثور مردودة عليهم وتدل على سوء نواياهم كهذا المستشرق اليهودي وبعض تلامذتهم كأمثال (أحمد أمين) وغيره ، حيث قال بناء على قول الإمام أحمد السابق (وحسبك دليلاً على مقدار الوضع ، إن أحاديث التفسير الذي ذكر فيها أحمد بن حنبل أنه قال لم يصح عنده منها شيء ، وقد جمع فيها آلاف الأحاديث) [1].

وهذه العبارة فيها الجهل باصطلاح علماء الحديث – واضح – وكذلك جهل بمراد العلماء منها ويدل على مقدار تأثر أحمد أمين وأمثاله ، – وهم كثير – بأقوال المستشرقين وأنسياقهم وراءها فالحذر من هذه الأقوال حتى لو صدرت ممن يحسبون على الإسلام .

([1]) فجر الإسلام لأحمد أمين (ص٢١١ – ٢١٢) .

المبحث الثاني

موقف المستشرقين من التفسير بالرأي المذموم

(التفسير المنحرف)

المطلب الأول : التفسير بالرأي المذموم

" التفسير المنحرف "

إن تفسير القرآن الكريم نوعان :

النوع الأول :

التفسير بالرأي المحمود أو الممدوح المقبول وهذا ما أجازه المجوزون من جمهور السلف والخلف واستدلوا بجوازه بالأدلة النقلية والعقلية .

وهذا النوع من التفسير مبني على المعرفة الكافية بعلوم اللغة والقواعد الشرعية والأصولية ، وبالسنة النبوية بحيث لا يعارض نقلاً صحيحاً ولا عقلاً سليماً ، ولا علماً يقيناً ثابتاً مستقراً مع بذل غاية الوسع والجهد في البحث والاجتهاد ، والمبالغة في تحري الصواب ، مع التريث وعدم العجلة ،وتجريد النفس عن الهوى ، والاستحسان بغير دليل مع مراقبة الله سبحانه في كل الأحوال

النوع الثاني :

التفسير بالرأي المذموم المردود :

وهذا النوع من التفسير هو الذي منعه المانعون ، وهو تفسير من قال في القرآن وهو ليس لذلك أهل ، ولم يملك أدوات المفسر ، وشروطه الصحيحة ،

فيغلب على تفسيره الجهل ، وتحميل الآيات فوق ما تتحمل ، أو تفسير القرآن بالهوى والاستحسان قاصداً بذلك نصرة مذهب باطل ، أو مبدأ فاسد ، كأصحاب الفرق الباطلة الذين يلوون أعناق الآيات لتخدم مناهجهم وأغراضهم ، أو تفسير للمتشابه من القرآن الذي لا يعلمه إلا منزله سبحانه ، وأكثر ما يشتمل هذا النوع من التفسير على الأقوال الواهية والضعيفة والإسرائيلية والموضوعة مما لا يليق بمقام كتاب رب العالمين سبحانه ، وقد وضع العلماء ضوابط وشروطاً لهذا النوع من التفسير ليكون من النوع الأول يرجع لها في موطنها .

وكانت هذه التفاسير (بالرأي المذموم) مثلاً سيئاً للتعصب المذهبي للفرق الإسلامية ومن هذه التفاسير تفاسير الشيعة والمعتزلة والخوارج ، والصوفية وغيرها .

المطلب الثاني : موقف المستشرقين من التراث التفسيري المنحرف

كان (كتاب مذاهب التفسير الإسلامي) بعد صدوره عام ١٩٢٠م قد وضع للمستشرقين أصول المنهج والطريقة التي يجب أن يتعاملوا بها مع التراث التفسيري ، واعتباراً لشخصية (جولد تسيهر) وأسبقية كتابه فقد أضحى " مذاهب التفسير " مصدراً للدراسات الاستشراقية عن القرآن وتفسيره . فهو منهل المستشرقين المتأخرين يقتبسون منه المادة ويقتفون أثره في المنهج ، والغريب أنه رغم فقر الكتاب ومحدودية قيمته العلمية ، ورغم إغراقه في التعصب .. إلا أن هذا الكتاب ظل يلهُم مختلف المستشرقين الذين يكتبون عن التفسير حتى في نهاية القرن العشرين .

ونجد (جولد تسيهر) يظهر اهتماماً وتعاطفاً واضحاً مع مختلف الاتجاهات المنحرفة ، التي شهدها تاريخ تفسير القرآن الكريم والمطلع على فهرس موضوعات الكتاب — وإن لم يقرأه – وإن لم يقرأ يرى أن التفسير بالمأثور لم يستغرق كله إلا سبعاً وأربعين صفحة كلها طعن في هذا الاتجاه ، في حين أن تفسير المبتدعة من معتزلة وباطنية وشيعة ، رغم محدودية هذا التراث – استغرق مائتين وسبع عشرة صفحة .

والسبب في اهتمام " تسيهر " بهذا التراث المنحرف ، يرجع إلى ما يراه من أن تفسير هذه الطوائف خضع للتأثير الأجنبي بخاصة عقائد أهل الكتاب .

أولاً : إعلاء شأن تفاسير المعتزلة :-

بدأ علم التفسير بالتفسير المأثور ثم انتقل بعد ذلك ليكون تفسيراً عقلياً وهو التفسير بالرأي بنوعيه المحمود والمذموم .

فالتفسير بالرأي المحمود ما كان منضبطاً بقواعد التفسير التي حددها العلماء ، وهذا النوع من التفسير صنو للتفسير بالمأثور ومكمل لمهمة التفسير بالمأثور لبيان كتاب الله سبحانه للناس .

وأما المذموم منه هو الذي خالف قواعد علم التفسير الجائز لنصرة مذهب فاسد أو مبدأ باطل حيث يفسر أصحابه الآيات حسب أهوائهم ويؤولون الآيات التي تخالف التفسير بالمأثور وتفسير الرأي المحمود .

وعلى رأس هذا النوع من التفسير (تفسير المعتزلة) الذي جاء لخدمة أصولهم العقدية الخمسة التي خالفوا بها عقيدة أهل السنة والجماعة ، وقد سخر المعتزلة لتفسيرهم كل ملكاتهم وقدراتهم العقلية والعلمية وساعدهم على ذلك تمكنهم من العربية وأساليبها ، وتمكنهم من العلوم العقلية والحكمة الفلسفية والمنطقية والكلامية ، ورد كل ذلك للعقل حتى لو خالف الشرع لاعتقادهم أنه العقل حجة على الشرع لا العكس فما حسنه العقل عندهم فهو حسن وما قبحه العقل فهو القبيح [١] .

---

(١) انظر كلاً من الاتجاهات المنحرفة في التفسير للذهبي ، ص٤٩-٥٠ ، دراسات حول القرآن الكريم لإسماعيل الطحان ، ص١٧٣-١٧٤ ، مناهج التفسير مصطفى الجويني ، ص١٠٧-١٠٨ .

وليس غريباً أن يكيل " جولد تسيهر " خاصة والمستشرقين عامة الكثير من الثناء لتفسير المعتزلة لما فيه من خدمة لأغراضهم وهي محاربة أهل السنة والجماعة وتفاسيرهم وعلى رأسها

[التفسير بالمأثور] .

كما أن هناك دافعاً آخر لهؤلاء المستشرقين وهو أن هذا المذهب يلائم ما عليه الغرب اليوم من تقديس للعقل وإعطاءه حرية أكثر مما يستحق .

ففي معرض كلام " جولد تسيهر " عن تفسير المعتزلة ، قال مشخصاً ذلك التأثير :

" وقد كان أمكن في وقت مبكر إثبات أن الأنظار والمسائل العقدية التي كانت محل الاعتبار في القرنيين الأولين عند علماء الكلام الإسلاميين ، قد برزت تحت تأثير النشاط العقدي داخل الكنائس والفرق المسيحية الشرقية ، ولا سيما في سوريا التي تعد المرحلة الأولى في طريق هذا الاحتكاك " [١].

ونجد أن اهتمام أجيال المستشرقين بالتفسير بالرأي المذموم ظهر من خلال احتفالهم بإنتاج هؤلاء ، المعتزلة لما أختصوا به من إعطاء العقل البشري المجرد أهمية قصوى ، وحسب التصور الاستشراقي فمذهب وجوب مطابقة العقل عند المعتزلة يهدف إلى إبعاد كل الأساطير من دائرة الحقائق الدينية ، دون هواده ولا حيطة " [٢].

ويقول " تسيهر " في إمتداح منهج المعتزلة وانحرافاتهم في التفسير وردهم للأخبار الصحيحة والواقع أن المعتزلة يسلكون طريقهم الخاص في دائرة التفسير

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي ، ص٦٧١ .

(٢) المستشرقون ومصادر التشريع – عجيل النشمي ، ص٣١ .

المتصل بالعقائد ، فهم لم يبالوا أن يزيلوا من طريقهم ، ركاماً كبيراً من التصورات الشعبية والآراء المروية التي لا تتفق مع تصورهم المستنير للألوهية [١].

ثانياً : إعلاء شأن تفاسير المتصوفة :-

وعرض " جولد تسيهر " موضوع التفسير في ضوء التصوف الإسلامي عرضاً ينم على سعة إطلاع على مصادر التصوف المتطرف منها والمعتدل متدرجاً به من الزهد البسيط إلى التذوق بالشوق المحرم إلى الله والحب المضطرم لله ، ثم إلى الحالة المثالية من الاستغراق وفناء الوجود الشخصية صعداً في حقيقة الله لتصب أخيراً في مذهب الحلول .

وقد ربط بين التصوف والمذاهب الإغريقية القديمة كالأفلاطونية الحديثة[٢] والغنوصية [٣] وغيرها.

وهذا العرض كان " جولد تسيهر " معجباً ومدافعاً بطرف خفي عن المنحرفين من أهل التصوف أمثال " الحلاج " [٤] و" ابن عربي " [٥]

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي ، ص١٣٥ .

(٢) الأفلاطونية الحديثة : مذهب فلسفي صوفي يستمد أفلاطون اسم مؤسسها وبعض مميزاته ظهر في القرن الأول بعد الميلاد ، وظهر في الإسكندرية .

(٣) الغنوصية : نسبة إلى غوصين وهي المعرفة وهي حركة فلسفية دينية ظهرت في القرن الثاني الميلادي أساسها أن الخلاص يتم بالمعرفة أكثر مما يتم بالإيمان والأعمال الخيرية .

(٤) الجلاج : الحسين بن منصور الحلاج المقتول على الزندقة كانت له بداية جيدة ثم تأله وتصوف ثم انسلخ من الدين وتعلم السحر أباح العلماء دمه فقتل سنة ٣١١هـ . سير أعلام النبلاء (٣١٣/١٤) .

(٥) ابن عربي :
الكاتب الصوفي ابن عربي الأندلسي الأصل ، المغربي ثم الشامي سكناً ووفاة ، أكثر الصوفية تبجحاً فيما يزعمه من العلم الباطني ، يسمونه الصوفية الشيخ الأكبر . انظر الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة . عبد الرحمن عبد الخالق ص١٧٥ .

و " إخـوان الصـفا "[١] ممجـداً طـريقتهم فـي التفسـير وهـو التفسـير الإشاري[٢].

وإن نشـأة الانحـراف فـي المـذهب الصـوفي فـي تفسـير القـرآن ترجـع إلـى الاعتماد على الفكر الفلسفي اليوناني وطريقته في البحث والتفكير والرمزية لظواهر النصوص.

---

(١) إخوان الصفا : جماعة سرية دينية فلسفية سياسية شيعية إسماعيلية باطنية ، اجتمعت وتصافت على القدس بالطهارة والصفا حسب زعمهم فسموا إخوان الصفا وخلاف الوفاء ولهم خمسون رسالة أو أكثر . انظر كشف الظنون (٩٢٥/١) .

(٢) التفسير الإشاري : قسم بعض العلماء المحققين التفسير الصوفي على قسمين : =

= القسم الأول : التفسير الصوفي النظري الذي يرى صاحبه أنه هو كل ما تحتمله الآية من معاني وهذا إلى تفسير الملاحدة والباطنية أقرب ، والعلماء متفقون على رده وعدم قبوله .

القسم الثاني : وهو التفسير الإشاري ، فلا يرى صاحبه أنه هو كلما يراد من الآية بل يرى أن هناك معنى آخر تحتمله الآية ، ويراد منها أولاً قبل كل شيء ، ذلك هو المعنى الظاهر الذي ينساق إليه الذهن قبل غيره ، انظر التفسير المفسرون للذهبي (٣٤٦/٢-٣٦٠) . ويختلف العلماء في جوازه.

فمنهم من بالغ في التحفظ والحفاظ على التفسير بمقتضى الظاهر فقصر مدلول التفسير عليه ، ويرى التأويلات الإشارية الصوفية من معاني ومواجيد لا يطلق عليها اسم التفسير ، لكي لا يلتبس ويشتبه على البعض وهذا هو الاتجاه الذي تلقيناه بالقبول والبعض يجيز هذا النوع من التفسير الإشاري الصوفي بشروط وهي :

١) أن لا يناقض معنى الآية .

٢) أن يكون في اللغة إشعار به .

٣) أن يكون معناً صحيحاً في نفسه .

٤) وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم .

فإذا اجتمعت هذه الشروط كان استنباطاً حسناً ، انظر : التبيان في أقسام القرآن لابن القيم (ص٨٥) ، الاتجاهات المنحرفة في التفسير للذهبي (٧٦ – ٨٢) .

فقد سلك أصحاب الفلسفة الصوفية النظرية منهج التفسير الإشاري الرمزي لآيات القرآن الكريم ، لاعتقادهم أن كل آية في القرآن تخفي وراءها معنى باطناً مقصوداً لا يكشفه الله إلا للخاصة منهم وأن المعرفة الحقة اليقينية لا تدرك إلا بالتأويل الباطني العميق والمجاهدة النفسية في حالات الكشف العليا[١] ، وأن الوقوف على ظواهر النصوص القرآنية حجاب يمنع من الوصول إلى معرفة حقائق الأمور .

فليس غريباً أن نجد المستشرقين يهتمون بمثل هذا النوع من التفسير لما فيه من تعطيل لهمة القرآن الكريم وهو الوقوف على معانيه وفهم مراد الله فيه وإدراك حق آياته ومقاصده ،كما أن في طريقتهم هذه تعطيل للشريعة .

وحرص " جولد تسيهر " على إظهار مثل هؤلاء الصوفيين ، فلإظهار التناقض والتعارض في فهم الكتاب وإخضاعهم لفظ القرآن لسلطانهم ، وإبراز هؤلاء المعطلة والملاحدة بمظهر أصحاب الفكر الحر واسعي الإدراك والإطلاع .

فيقول " جولد تسيهر " عن الباطنية " والحق أن مبادئ ونظريات المتصوفة وإخوان الصفا مشتركة بين كلتا الدائرتين ، ومشتركة كذلك من بعض الجوانب ، والوسائل التي يجعلون الإنسان بواسطتها يطمح إلى هدف الكمال أو الخبر الأعلى ، وإنما كان ذلك مشتركاً بينهما لأن جذورهما جميعاً تمتد إلى الأفلاطونية المحدثة وغلى الغنوصية " [٢].

ثالثاً : إعلاء شأن تفاسير الفرق الدينية " الخوارج والشيعة " :-

حاول " جولد تسيهر " أن يثبت أن التفسير القرآني كان يتبع مصلحة الفرق الدينية ومبادئهم الأساسية. حيث أن كل فرقة كانت تحاول إيجاد الدليل على عقيدتها ونظرياتها السياسية من القرآن وتفسير القرآن حسب هذا الذي أرادوا تحقيقه وإثباته

---

(١) أصول التفسير وقواعده ، خالد العك (ص٢٣٧ – ٢٣٨) .

(٢) مذاهب التفسير الإسلامي ، ص٢٢٩ .

وضرب على ذلك أمثلة كفرقة الخوارج والشيعة وما تفرع عنهما من الفرق كالإسماعيلية الفاطمية والبابية ، وغير ذلك الفرق [١].

وهذه الفرق تعتبر ممن انحرف بتفسير القرآن بشكل بين متكلف لتأييد آرائهم وتثبيت أفكارهم ومذاهبهم الاجتهادية حيث حملوا الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة لنصرة مذاهبهم وحملوها ما لا تحتمل .

ومن الفرق التي ذكرها " جولد تسيهر " تمثل هذا الاتجاه من التفسير فرقة الخوارج . وقد نشأت هذه الفرقة بعد قضية التحكيم لفض الخلاف الذي حصل بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما على الحكم وقد تفرق الخوارج لعشرين فرقة كل فرقة لها اعتقاداتها الخاصة بها إلا أنه يجمعها مبدءان أساسيان :

١) تكفير علي وعثمان والمحكمين وكل من رضي بتحكيمها وأصحاب الجمل .

٢) وجوب الخروج على السلطان الجائر .

وهناك مبدأ ثالث يقول به أكثرهم وهو التفكير بارتكاب الكبائر [٢].

وكان طبيعياً وقد تعددت فرقهم وكلهم ينتسبون إلى الإسلام أن يعترفوا بالقرآن وأن تبحث كل فرقة منهم عن مستند لمبادئهم في القرآن الكريم ولو تكلفا والذي ينظر إلى تفاسيرهم يجدها قيلت خلال جدلهم ومناظرتهم مع خصوهم صارفين معانيه لنصرة مذهبهم ، مؤولين ما يعارضه من النصوص القرآنية [٣].

وكان الواجب على من يتعرض لمثل دراسة مذاهبهم وتفاسيرهم ، أن لا يكون مجرد ناقل كما فعل " جولد تسيهر " ليوهم القارئ أن تفسير هذه الفرقة

---

(١) مذهب التفسير الإسلامي ، ص ٢٨٦ ، وما بعدها .

(٢) التفسير والمفسرون (٢/٣٠٠) ، بدع التفاسير في الماضي والحاضر ، رمزي نعناعة ، ص٦٨ .

(٣) الاتجاهات المنحرفة في التفسير ، ص٦٣ – ٦٤ .

صحيح وأنه لون من ألوان التفسير الجائز مع أن " جولد تسيهر " لم يعرض منهج التفسير عند أهل السنة والجماعة كما عرض لتفاسير هذه الفرق الضالة مادحاً مبيناً المحاسن دون العيوب ، أما تفسير أهل السنة والجماعة فقد تناوله بالتشكيك تارة ، والتشكيك في رجاله تارة أخرى ، مما يدفعنا للشك في نوايا هؤلاء المستشرقين وفي تجردهم العلمي الذي يزعمون .

والفرقة الثانية التي تعرض لها " جولد تسيهر " هم الشيعة ومنهجهم في التفسير. فالشيعة فرقة من الفرق الإسلامية ، شايعوا علياً وأهل بيته ووالوهم معتقدين أن علياً هو الإمام بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وأن خلافته ركن الدين وقاعدته وهي حق له بوصية رسول الله وقد عليه الصلاة والسلام أصاب الشيعة ما أصاب غيرهم من الفرق الإسلامية من التمزق والانقسام والاختلاف .

وكان طبيعياً لكل فرقة منهم ما داموا ينتسبون للإسلام أن يبحثوا عن مستند يؤيد مذهبهم واعتقاداتهم من القرآن ، ويؤولوا الآيات التي تخالف مذهبهم ليجعلوا لمذهبهم مسوغاً شرعياً ، فيجمعوا له أنصاراً .

وكان الشيعة من أكثر الفرق الإسلامية جرأة وتعدياً على النص القرآني دعماً لاعتقاداتهم ، فزعموا أهل السنة بدلوه وغيروه وزادوا فيه وأنقصوا منه لإبعاد علي ونسله من الخلافة [1]، وقد اعتمد المستشرقون على أقوال الشيعة فيما نسبوه للقرآن الكريم من اضطراب وزيادة ونقصان اعتماداً كبيراً .

ومن هنا كان عرض " جولد تسيهر " لمنهج هذه الفرق في التفاسير ودافعه من وراء ذلك واضح وذلك لمخالفتها للتفسير الصحيح عند أهل السنة والجماعة

---

(١) التفسير والمفسرون (٣/٢) وما بعدها ، الاتجاهات المنحرفة في التفسير ، ص٥٣-٥٥ باختصار .

ولإظهار الخلاف بين فرق المسلمين وكان عرضه بطريقة توحي أن تفسيرهم لون من ألوان التفسير المقبول والجائز ،وهذا المنهج مخالف للمنهج العلمي المتجرد مما يبين سوء نية هذا المستشرق وإخوانه في اختيارهم لمثل هذه الموضوعات وفي طريقة عرضهم لها ولخطوات منهجهم فيها .

المبحث الثالث موقف المستشرقين من التفاسير المعاصرة

(تفاسير التمدن الإسلامي)

المطلب الأول : التفسير في ضوء التمدن الإسلامي

منذ أن أنزل الله سبحانه وتعالى كتابه الكريم على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام ، والمسلمون يرجعون إليه تلاوة وفهماً و دراسة تحليلية يدل ذلك كله على مقدار اهتمامهم بهذا الكتاب العظيم .

ولكن البلاد الإسلامية مرت بفترات اضطراب أدت إلى ركود وجمود في الحركة العلمية إجمالاً ، وكان آخر ما تعرضت له المنطقة الإسلامية الغزو الثقافي الذي خلفه الاستعمار العسكري في المنطقة يمثله التبشير والاستشراق الذي أدى لإنماء التعلم العلماني في المنطقة.

فظهر على أثر ذلك الحركة العصرية في العلوم الدينية التي تحاول جهدها التوفيق بين العلوم الإسلامية وبين المفاهيم والثقافة الغربية .

وكان على رأس من تبنى هذه الحركة السيد أحمد خان بهادر في الهند ، وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في مصر ، ولا يعني هذا أن كلا المدرستين لم يكن لهما جوانب إيجابية ، ولا تأثير على النهضة العلمية الإسلامية عامة والتفسيرية خاصة ، فمن جوانب الحركة التفسيرية العصرية الإيجابية : إنماء روح الابتكار التي شهدتها هذه الحركة والتركيز على جانب الهداية الربانية التي من أجلها أرسل الله

الرسل ، فلبس التفسير في هذا العصر ثوباً أدبياً اجتماعياً ، جميلاً أظهر روعة القرآن الكريم .

وقد اقتصر التفسير في هذه الفترة على الضروري ، مع مراعاة لمستوى القارئ من كل الفئات ، والمدرسة العصرية المصرية أكثر سلامة وأقل انحرافاً في مسيرتها من المدرسة العصرية الهندية التي ابتعدت كثيراً في مسيرتها عن طريقة أهل السنة والجماعة عقيدة ، وفهماً لكتاب الله سبحانه ، وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد ركز " جولد تسيهر " على هاتين المدرستين عندما تحدث عن حركة التفسير الحديث بمفهوم العصرية . وبانحرافاتها تحت مبحث [التفسير في ضوء التمدن الحديث] وسنذكر الحديث على هاتين المدرستين لأنهما المدرستان اللتان اهتم المستشرقون بهما اهتماماً خاصاً وقدموا دراساتهم عن التفسير الحديث من خلالهما .

المطلب الثاني : المدرسة العصرية الهندية

رائدها في العالم الإسلامي هو السيد أحمد خان بهادر هندي الأصل عاش بين (١٨١٧م – ١٨٩٨م) ولد في مدينة (دلهي) من أسرة من علية القوم ، عراقة وذات صلة وطيدة بالحكام المغول وإن كانت فقيرة .

لم يوفق لإكمال تعليمه في بداية حياته ، فالتحق بخدمة الحكومة الإنجليزية في سلك القضاء ، وبعد اخفاق الثورة الهندية عام ١٨٥٧م وقف يناصر الإنجليز ويساعد في حمايتهم ، وأيقن أن ولاءه للإنجليز هو السبيل الوحيد لإنقاذه وبلاده من الخراب والدمار ، وازداد تعلقه بالغرب بعد زيارته لبريطانيا عام ١٨٦٩م ، وبعد أن رجع إلى بلاده أخذ على عاتقه أن يفتح أعين المسلمين إلى عظمة الحضارة الغربية وكانت وسيلته إلى ذلك ثلاثة مبادئ :

١) التعاون في المجال السياسي .

٢) استيعاب علوم الغرب في المجال الثقافي .

٣) إعادة تأويل الإسلام في المجال الفكري ليتكيف مع الحضارة الغربية .

فألف العديد من الكتب لخدمة هذا الغرض ومن أهم مؤلفاته (تفسير القرآن العظيم) وهو الكتاب الذي اعتمده " جولد تسهير " في دراسته وسجل ملاحظاته عنه في كتاب " مذاهب التفسير الإسلامي " وقد أراد من تأليفه أن يثبت أن حقائق الإسلام وتعاليمه لا تتعارض مطلقاً مع قوانين الطبيعة لأن القرآن هو (كلمة الله) وقوانين الطبيعة هي (فعل الله) ولا يتعارض كلامه مع فعله .

فمن أجل ذلك وضع هذا التفسير مخالفاً فيه كلام العرب وآراء السلف وإجماعهم لمحاولته تأويل ما ظنه تعارضاً بين كلام الله وقوانين الطبيعة .

وقد كان نتيجة هذا المنهج في فهم الدين عند " خان " أن نادى بإعادة تأويل القرآن ، وتطويع مفاهيم الإسلام لموافقة قيم الغرب ، وآرائه بجرأة وصراحة[١] .

---

(١) آراء المستشرقين ، د . عمر رضوان ، ص٧٨٩ إلى ص٨٠٠ باختصار .

المطلب الثالث : المدرسة العصرية المصرية

كانت أول محاولاتها من الشيخ جمال الدين الأفغاني مؤسسة حركة التجديد في مصر الذي كان من دعاة الوحدة الإسلامية وتحرير بلاد الإسلام من الإستعمار .

ولد جمال الدين الأفغاني في أسعد آباد في أفغانستان سنة **١٢٥٤**هـ — **١٨٣٩**م وأسمه محمد بن صفرد ، أما جمال الدين فلقبه وأجمع بعض الكتاب إلى أصله إيرانياً شيعياً جعفري المذهب من مدينة أسد آباد ، بالقرب من همذان ، وأن إخفاءه لحقيقة أصله حتى يخفي تشيعه عن الناس في البلاد العثمانية التي تنقل فيها[١] .

وبحكم تنقله في كثير من بلدان العالم العربي والإسلامي والدولي فقد تأثر بالغرب وثقافته وتقدمه الحضاري والمادي وقد ظهر اهتمامه بالتفسير على أثر ما تعرض له ، وكان استخدامه لتفسير الآيات لخدمة أغراضه السياسية .

والذي يطلع على حياته يجده عقلية نابغة وشخصية قوية عرفت الغرب دراسة وسياحة وثقافة وسياسة ولكنها يكتنفها كثير من الغموض [٢].

وأما الرجل الثاني الذي ركز عليه " جولد تسهير " في المدرسة العصرية المصرية هو الشيخ محمد عبده تلميذ جمال الدين الأفغاني .

ولد محمد عبده حسن خير الله ، في بحصة شبشير في مصر عام **١٢٦٥**هـ .

---

(١) اتجاهات التفسير في العصر الراهن لعبد المجيد المحتسب ، ص١١٣ .

(٢) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير لفهد الرومي ، ص٨٤ .

تلقى علومه في الجامع الأحمدي وفي الأزهر ، وتأثر كثيراً بالشيخ جمال الدين الأفغاني وكان الشيخ محمد عبده يستلهم هدى القرآن لإرشاد المسلمين وإصلاحهم في كافة جوانب حياتهم وكان ذلك ما عرف بالتفسير الإصلاحي الاجتماعي .

وقد حرص الشيخ محمد عبده على أن ينقي تفسير القرآن الكريم من الإسرائيليات والأحاديث الموضوعة والخرافات والاستطرادات النحوية ونكت المعاني ، ومصطلحات البيان وجدل المتكلمين وتخريجات المتصوفين وتعصب الفرق وكثرة الروايات ، والعلوم الرياضية والطبيعية[1] وخلاصة القول في دعوة الشيخ محمد عبده:

١) أن الاتجاه الذي تزعمه الشيخ محمد عبده في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ظهر بين نزعتين : غربية وإسلامية ومحاولة التوفيق بينهما وهذا الاتجاه عرضه لسخط المتفرنجين والداعين بدعوة الإسلام كليهما .

٢) اتخذ محمد عبده تفسير القرآن الكريم أساساً لنزعته الإصلاحية إصلاح المجتمع الديني التي تأثرت بمفاهيم الفكر الغربي .

٣) يمثل اتجاه الشيخ محمد عبده في تفسير القرآن الكريم مرحلة الدفاع عن الإسلام وكأنه في قفص الاتهام .

٤) علاقته المريبة باللورد كرومر والمستشرقين ورجال الفكر الغربي فقد كان يعظم بحوثهم ، ويثني على سياستهم في التسامح والعدل .

٥) وتتسم حياته الفكرية والسياسية إلى قسمين :

أ) تأثيره الكامل بجمال الدين الأفغاني .

---

(١) لمحات من علوم القرآن ، محمد الصباغ ، ص ٢١٩ – ٢٢٠ باختصار .

ب) بعد عودته لمصر من منفاه عمل على صداقته بالبريطانيين كرومر ، والمستر بلنت .

٦) رفع سلطان العقل في فهمه للقرآن وفي التحسين والتقبيح تأثراً بالمعتزلة .

٧) إنكاره للسحر وبعض الأحاديث الصحيحة ، وجعله الملائكة قوى لا تعقل ، إباحته لربا الفضل ، وإنكاره تعدد الزوجات[١] .. الخ .

أما الرجل الثالث والذي ذكره " جولد تسيهر " وهو السيد / محمد رشيد رضا .

ولد السيد / محمد رشيد بن علي رضا في القلمون وهي قرية بجانب طرابلس الشام ، سنة ١٢٨٢م – ١٨٦٥م ، تلقى علومه الأولية في بلاد الشام ، ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥هـ واتصل بالشيخ محمد عبده ، وأصدر مجلة المنار التي كتب فيها تفسير المنار .

وقد ترك محمد رشيد رضا مقداراً أكبر من الذي قد تركه شيخه محمد عبده وقد كان القسم الأول من تفسيره إلى الآية (١٢٦) من سورة النساء ليس له فيها إلا الصياغة أما الأفكار والمعاني فللأستاذ الإمام وكان يعتني بتفسير القرآن بالقرآن إن وجد وتفسير القرآن بالسنة ثم بعد ذلك يستعمل عقله المتحرر من كل ما قاله المفسرون وقد تبع في منهجه في التفسير منهج شيخه محمد عبده ولكنه بعد وفاة شيخه واستقلاله بالعمل خالف هذا المنهج بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها [٢].

---

(١) اتجاهات التفسير في العصر الراهن ، ص١٠٩ .

(٢) لمحات من علوم القرآن ، للصباغ ، ص ٢٢٣ – ٢٢٤ ، باختصار .

ولكنه كان كثر الاعتداد بعلمه ما جعله يجاوز الحد ، ودعاه لمخالفة العلماء في عدد من القضايا ونقله من الإنجيل على الرغم مما يعرف عنه من إنكار رواية الإسرائيليات ومهاجمته المفسرين الذين يتساهلون في هذا الموضوع بعنف شديد [١].

وقد أفرزت هذه المدرسة عدة رجال اهتموا بعلم التفسير كالشيخ محمد مصطفى المراغي ، وأحمد مصطفى المراغي وعبد العزيز جاويش وغيرهم .

هذا ما جعل المستشرقين وعلى رأسهم " جولد تسيهر " يهتمون بهذه الحركات الإصلاحية ويربطون بين المدرستين الهندية والمصرية لما فيهما من أفكار تلائم دعواتهم وتحقق أهدافهم لما فيهما من إنحرافات توافق ما ينسبونه للإسلام من افتراءات وادعاءات كما أن هذه الحركات الإصلاحية أفرزت اتجاهات إلحادية في التفسير أصدرت دلائل القرآن والسنة.

وقد أشار لهذا التشابه بين المدرستين (الهندية والمصرية) اللورد كرومر في كتابه " مصر الحديثة " حيث يقول : " إن محمد عبده كان مؤسساً لمدرسة فكرية حديثة في مصر قريبة الشبه من تلك التي أسسها السيد أحمد خان في الهند مؤسسة جامعة عليكره " ثم يقول : إن أهمية السياسية ترجع إلى أنه يقوم بتقريب الهوة التي تفصل بين الغربي وبين المسلمين وأنه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بأن يقدم لهم كلما يمكن من العون والتشجيع فهم الحلفاء الطبيعيون للمصطلح الأوروبي) [١].

---

(١) آراء المستشرقين ، ص٨١٠ .

المبحث الرابع

المنهج المقترح للتفسير عند المستشرقين

في منتصف القرن العشرين كثرت الكتابات الاستشراقية عن تفسير القرآن ، واشتهر من المستشرقين المحسوبين على الدراسات القرآنية الفرنسي بلاشير والألماني بريترل ، والإنجليزي ، أربري ، والأمريكي ذو الأصل الاسترالي جفري .

ونظراً لوفرة ما نشره هؤلاء وغيرهم في مجال الدراسات القرآنية فقد خيل إليهم أنهم أصبحوا مؤهلين ليس للكتابة في اتجاهات التفسير ومناهجه فحسب ، بل أيضاً في إمكانهم التصدي لتفسير القرآن نفسه .

ولإضفاء شكل من الموضوعية العلمية الكاذبة على مشروعهم للتفسير وحتى لا يتهمون بالخوض بآرائهم الكليلة وتصوراتهم المدخولة في القرآن وهم دعاة البحث العلمي المنهجي ، فقد تضافرت جهودهم من أجل اقتراح منهج استشراقي للتفسير ، وحررت أصول هذا المنهج من قبل المستشرق "كلود كايو " الذي نشرها في الطبعة الإنجليزية للموسوعة الكونية ويقوم هذا المنهج على المطالب التالية :

المطلب الأول : الدعوة إلى توثيق النص القرآن

وهذه هي الخطوة الأولى في منهجهم المقترح ، وتقتضي مراجعة تاريخ المصحف الشريف ، حيث يتطلعون إلى مراجعة جمع المصحف العثماني وبالتالي يصلون إلى غايتهم ، في إمكانية التصرف في القرآن الكريم بالحذف والزيادة.

وفي سبيل هذه الغاية اهتموا بثلاث مجالات في العصر الحالي :

(أ) تتبع مصادر القراءات الشاذة والمنكرة والعمل على نشرها .

(ب) بذل الجهد لدى بقايا الفرق الباطنية وجمع تراثهم وأضاليهم التي يدعونها على المصحف خاصة بقايا الإسماعيلية في شمال الهند ولبنان وجبال العلويين حيث استقرت النُصيرية [1].

(جـ) التطلع إلى إعادة تشكيل مصحف جديد يعتمد الترتيب النزولي حتى يتسنى لهم إدماج مختلف الضلالات فيه ورغم استحالة هذا العمل إلا أنهم ما زالت تهفو نفوسهم إلى إعادة تشكيل مصحف جديد للمسلمين .

وهذا المشروع الاستشراقي لمراجعة المصحف لا يكاد يخفي غاياته للتخلص من القرآن الكريم وإزالته من الوجود ويأبى الله إلا أن يخلد كتابه ويحفظه ولو كره المستشرقون .

المطلب الثاني : المطالبة بنقد التفاسير القديمة

وعلمية النقد التي يطلقها هؤلاء لا تعني إطلاقاً تطبيق مناهج النقد عند أئمة الرواية على آثار التفسير ، كما فعل بعض أعلام المفسرين وكثير من محدثين

([1]) النصيرية : هم أتباع محمد بن نصير النمري ، وسميت بهذا الاسم نسبة إليه وهو من غلاة الشيعة الذين ألهوا علياً بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد انبثقوا من الأثنى عشرية (الرافضة) . انظر الموجز في الأديان والمذاهب ص١٣٦ .

المفسرين ،كما أن هذا النقد لا يمكن أن يطول الاتجاهات المنحرفة التي شهدها تاريخ التفسير .

بل إن المستشرقين لا يهمهم بالدرجة الأولى سوى نقد أمهات التفاسير الأثرية التي صنعها أئمة علماء أهل السنة ، ثم بيان كيف أن علوم الإسناد لعبت دوراً أساسياً في تثبيت [أيديولوجية] (1) أهل السنة عن طريق ربط الجماعة المسلمة بسلاسل من الرواة تنتهي إلى مختلف الأحاديث والدارس يدرك من المواقف الاستشراقية التي لا تكاد تخفي فساد طويتها وخلفياتها ، أن الهدف النهائي من عملية نقد التفاسير عند المستشرقين هو الطعن في جانب من السنة المشرفة (أحاديث التفسير) والنيل من عدالة صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام حتى يفتح الباب على مصراعيه من أجل تبني هرطقات المبتدعة المنسوبة للتفسير ، وهذا بحق هو جوهر الدراسة الاستشراقية للتفسير .

المطلب الثالث : الدعوة إلى تفسير القرآن

تفسير القرآن علم له قواعده وآدابه وأصوله ، ولا يمكن أن نجد علماً من العلوم سواءً كان يهتم بالدين أو لا علاقة له بموضوعه ، يخرج من هذا الأصل العام في المعارف الإنسانية قاطبة .

---

(١) [الأيديولوجية] هي مجموعة منظمة من الأفكار تشكل رؤية متماسكة شاملة وطريقة لرؤية القضايا والأمور التي تتعلق بالأمور اليومية أو تتعلق بمناحي فلسفية معينة سياسية بشكل خاص. أو قد تكون مجموعة من الأفكار التي تفرضها. قاموس المورد، البعلبكي، بيروت، لبنان، مفهوم الأيديولوجيا ضمن (سلسلة مفاهيم)عبدالله العروي ص ١٤٢

كما أنه لا يوجد مجال في هذه الدراسة للإلحاح إلى أصول علم التفسير وقواعده ، لذلك نكتفي بالتأكيد والتذكير بهذه الأصول التي تطلب في مظانها المختلفة .

والحركة الاستشراقية المعاصرة حين أرادت الخوض في تفسير القرآن لم تكن تغفل عن هذا الموضوع لكنها أرادت أن تتجاوزه ظهرياً عن طريق الالتواء على هذه الأصول العلمية بدعوى الاستفادة من معطيات العلوم الإنسانية بالغرب ، وتبعاً لهذه الدعوى تأسس منهج تفسير القرآن عند المستشرقين ابتداء من منتصف القرن العشرين على هذه المعطيات التي سبق للدوائر العلمانية (والتيارات اللادينية) في الغرب أن أخضعت لها تراثها الديني المحرف .

والذي يظهر أن المنهج المقترح عند المستشرقين لإعادة تفسير كتاب الله ينبني على ما يلي :

١. أن القرآن الكريم إنما هو مجرد تلفيق من مصادر عدة ، استقى فيها محمد عليه الصلاة والسلام ما جاء به لأمته .

٢. أن أحكام القرآن إنما هي مجموعة من التشريعات أدرجها فقهاء الإسلام ضمن تفاسيرهم دون أن تكون لها علاقة به .

٣. أن ما يعتقده المسلمون ويتصورونه بخصوص موضوع القرآن وتفسيره إنما تم تكريسه بواسطة تلك الأحاديث المسندة التي تنتهي إلى طائفة من الصحابة الذين اختلقت لكل واحد منهم سيرة أسطورية تسمو به في نظر المسلمين والكتابات الاستشراقية عن التفسير تؤيد أن تسقط عدالة الصحابة رضي الله عنهم حتى يسهل عليها الطعن في إسناد أحاديث التفسير .

كما تبحث عبثاً من وسيلة لقطع الصلة بين القرآن وأحكامه وهذا بعد إعادة النظر في تشكيل وجمع المصحف نفسه .

غير أن الذي يمكن أن يستفد به القارئ المتتبع هو ذلك الموقف الاستشراقي المزدوِج من تراث المبتدعة المنسوب زيفاً إلى التفسير .

فمن جهة لا نكاد نجد هذا التراث يوضع على محك النقد الاستشراقي مع أمهات كتب العلم التي يتجرأ هؤلاء على الكلام فيها .

ومن جهة ثانية لا يخفى على أحد احتفال الكثير من المستشرقين بتراث هؤلاء المبتدعة وبحثهم عنه وسعيهم الدؤوب من أجل إحيائه ونشره .

الخـــاتمـة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه .

كانت المباحث السابقة عرضاً وتحليلاً وتقويماً لكتابات المستشرقين عن موضوع تفسير القرآن الكريم .

ومن خلال البحث توصلت للنتائج التالية :

١. ضخامة الإنتاج الاستشراقي والدعم المادي الهائل له من قبل الحكومات الغربية ممثلة بالمؤسسات التبشيرية والمراكز العلمية وعلى رأسها الجامعات الغربية .

٢. نجد أنه برغم الاهتمام الهائل من الغرب وفي المقابل عدم الالتفات لهذا النتاج الاستشراقي من قبل المسلمين وخاصة المؤسسات التعليمية والمراكز الإسلامية . لذا نجد هذه الكتب الاستشراقية لم تترجم من لغاتها إلى اللغة العربية وهي أكبر مشكلة تواجه علماء المسلمين إذا أرادوا التصدي لها والرد عليها .

٣. إن الكتابات الاستشراقية عن التفسير حاولت في أول أمرها تأصيل تراث المبتدعة المنسوب إلى علم التفسير ، وذلك بجعله لوناً من أدوات هذا العلم ، فلما ظهرت مختلف الدراسات المعاصرة بالعالم الإسلامي ، وبينت حقيقة هذا التراث ، غير أكثر المستشرقين خطتهم ، وبدأوا التفكير بدعوى جديدة .

٤. إن دعوة المستشرقين لإعادة النظر في التفسير قدموها في صياغة نظرية غير منضبطة حتى يتسع لهم تفسير كتاب الله بمحض الهوى .

٥. إن الطريقة التي دعا المستشرقون لنهجها في التفسير ظلت طيلة عقود من الزمان مجرد نظرية لم يستطيعوا تطبيقها .

٦. إن أغلب كتاباتهم مجرد (مقالات) في التفسير الموضوعي كانوا فيها عالة على معجم آيات القرآن .

٧. إن دعوتهم لاعتماد معطيات العلوم الإنسانية بالغرب في مجال تفسير القرآن أملاها عليهم واقع عجزهم عن التعامل مع المصادر بسبب الجهل باللسان بالإضافة إلى سعيهم الحثيث لهدم علم التفسير .

وهناك بعض المقترحات التي أحب أن أذكرها في ختام البحث مع علمي بأنه قد يكون من سبقني للدعوة إليها ولكن اذكرها من باب الذكرى في :

١. المطالبة بتكثيف دور الإعلام الإسلامي خاصة في بلاد الغرب وذلك من خلال إصدار الكتب والموسوعات والنشرات والدوريات عن الإسلام وترجمات معاني القرآن الكريم للغات العالمية ، رادين فيها على شبهات المستشرقين وافتراءاتهم ، مقدمين الإسلام بطريقة سهلة واضحة ما يجعله يصل لقلوب العالم الغربي .

٢. إرسال الدعاة إلى العالم الغربي لعرض عقائد الإسلام وتشريعاته ومناقشة المستشرقين وبيان عوار أفكارهم وتصوراتهم عن الإسلام .

٣. عقد مؤتمرات إسلامية سنوية للمفكرين والعلماء والدعاء المسلمين لمتابعة المستجدات في الحركة الإسلامية ووضع الردود المناسبة للجديد من الشبهات .

٤. إقامة دورات للمبتعثين لديار الغرب وتحصينهم من أفكار المستشرقين ودسائسهم ، ثم متابعتهم في دول الابتعاث بعقد لقاءات مستمرة لهم ، وتعريفهم بواجبهم تجاه دينهم الإسلامي الحنيف .

وأخيراً الحمد لله أولاً وآخراً وقبل كل شيء حامدة شاكرة ما وهبني ربي من عطائه الجزيل وأعانني على كتابة البحث برغم كل المصاعب التي واجهتني سواءً كانت علمية أو صحية ، وأسال الله سبحانه أن يتقبل مني ويحتسب لي عملي عنده ، وأن كنت قصرت فإلي تقصيري ومنه العفو والغفران .

فاللهم اغفر لي ولوالدي واجمع بيننا وبنيهم في مستقر رحمتك مع الأهل والذريات يا رب العالمين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس المراجع والمصادر

١- اتجاهات التفسير في العصر الراهن ، عبد المجيد عبد السلام المحتسب ، نشر مكتبة النهضة الإسلامية عمان ، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ .

٢- اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر ، فهد عبد الرحمن الرومي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٨هـ .

٣- الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم دوافعها ودفعها ، محمد حسين الذهبي ، مكتبة وهبة ، مصر .

٤- الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، الطبعة الثالثة ، ١٣٧٠هـ .

٥- اجنحة المكر الثلاثة ، عبد الرحمن حبنكة الميداني ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٧هـ .

٦- آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره ، عمر إبراهيم رضوان ، دار طيبة ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ .

٧- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، محمود حمدي زقزوق ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٥هـ .

٨- الاستشراق والمستشرقين ، مالهم وماعليهم ، مصطفى السباعي ، طبعة المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٩هـ .

٩- أصول التفسير وقواعده ، خالد عبد الرحمن العك ، دار النفائس ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦هـ .

١٠- بدع التفاسير في الماضي والحاضر ، رمزي نعناعة ، مؤسسة الأنوار ، الرياض .

١١- البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين الزركشي ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩١هـ .

١٢- البيان في أقسام القرآن ، لابن القيم الجوزية ، تحقيق : عصام الحرستاني ، تخريج محمد الزغلي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ .

١٣- التفسير والمفسرون ، محمد حسين الذهبي ، طبعة دار الكتب الحديثة ، مصر ، الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ .

١٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لابن جرير الطبري ، تحقيق وتعليق : محمود شاكر ، دار المعارف ، مصر ، سنة ١٣٧٤هـ .

١٥- دائرة المعارف الإسلامية ، تأليف مجموعة من المستشرقين أبدلها بالعربية أحمد الشنتاوي وآخرون ، دار المعرفة ، بيروت ، ودائرة المعارف الإسلامية الصادرة باللغة الفرنسية .

١٦- دراسات حول القرآن الكريم لإسماعيل الطحان ، طبعة مكتبة الفلاح .

١٧- سير أعلام النبلاء ، لشمس الدين الذهبي ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة التاسعة ، ١٤١٣هـ .

١٨- فجر الإسلام ، أحمد أمين ، النهضة المصرية ، ١٩٦٦م .

١٩- الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ، عبد الرحمن عبد الخالق ، مكتبة ابن تيمية ، الكويت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٦هـ .

٢٠- القرآن : نزوله وتدوينه بلاشير ريجس ، القرآن : نزوله ، تدوينه ، ترجمته ، وتأثيره ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ونقله إلى العربية : رضا سعادة ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م .

٢١- قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية ، نقد مطاعن ، ورد شبهات ، فضل حسن عباس ، ترجمة جديدة منقحة تتضمن ترجمة دقيقة لنص الموسوعة البريطانية في في أحدث إصداراتها ١٩٩٩م ، دار الفتح ، عمان ، الأردن ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١هـ .

٢٢- لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير ، محمد الصباغ ، المكتب الإسلامي، دمشق .

٢٣- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية الأندلسي ، المملكة المغربية ، وزارة الأوقاف والشئوون الإسلامية .

٢٤- مذاهب التفسير الإسلامي ، اجنتس جولد تسيهر ، دار أقرأ ، بيروت ، ترجمه عبد الحليم النجار ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ .

٢٥- المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي ، عجيل بن جاسم النشمي ، نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ.

٢٦- مسند الإمام أحمد ، دار الفكر ، بيروت .

٢٧- مقدمة أصول التفسير ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٣٩٩هـ .

٢٨- مناهج في التفسير ، مصطفى الجويني ، نشر منشأة المعارف ، الإسكندرية .

٢٩- منهج المدرسة العقلية في التفسير ، فهد بن عبد الرحمن الرومي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

٣٠- الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة ، ناصر القفاري وناصر العقل ، دار الصميعي ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ .

المجلات والدوريات :

١- تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين ، مجلة البحوث الإسلامية ، إدارة البحوث العلمية والإفتاء ، الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء ، الرياض ، العدد ٦٧ ، ١٤٢٣هـ .

٢- مطاعن المستشرقين في ربانية القرآن ، د. عبد الرزاق بن إسماعيل هرماس ، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ، العدد الثامن والثلاثون ، ربيع الآخر ، ١٤٢٠هـ .